الفصل الأول

طرابلس

مدينة على ساحل البحر المتوسط، سكانها ٣٢٦٢٦، منهم ٢٨٠٠٠ مسلمون سنيون و ٤٠٠٠ روم أرثوذكس و ١٦٠٠ موارنة وهي مركز محافظة طرابلس التي تكونت بعد الاحتلال الإفرنسي للجمهورية اللبنانية، رغم رغبة أهلها الملحة واحتجاجاتهم وثوراتهم لأجل الالتحاق بدمشق، وهي تقع في الدرجة ٣٧,٢٧ من العرض و ٣٥,٥٠ من الطول، وفيها محاكم صلح للبداية وللصلح ومركز ومطرانية للموارنة وأخرى للروم الأرثوذكس وثالثة للروم الكاثوليك.

وتتألف مدينة طرابلس من بلدتين مفترقتين - الأولى البلد، أو طرابلس الأصلية يشقها من النصف نهر أبو علي (قاديشا)، والثانية الميناء، وهذه في منتهى شبة الجزيرة الداخلة في البحر وكانت بين البلدة والميناء.

وطرابلس البلد مبنية على بعد نحو كيلو مترين عن ساحل البحر في سفح وعلى منحدر جبلين من أعضاد لبنان الشمالي، الأول، أبو سمرا، على ضفة (أبو علي) اليسرى، والثاني القبة على ضفة (أبو علي) اليمنى - وعلى قمة جبل أبو سمرا انتصبت قلعة كبيرة تنسب إلى رايموند دوجيل كونت طولوز الذي حكم طرابلس في عهد الاحتلال الصليبي، وقد انتشر العمران في غربي القلعة، ونشطت حركة بناء الدور الحديثة في الغرب الأقصى لجبل أبو سمرا بعد أن تم جلب ماء عين رشعين العذبة سنة ١٩٣٤، وربما امتلأ ظهر هذا الجبل في مستقبل قريب.

والأحياء القديمة لمدينة طرابلس محصورة على ضفتي نهر أبو علي، ومباني دورها حجرية قديمة ذات طبقتين وأكثر كما رآها ناصر خسر وقبل منتصف القرن الخامس، مكتظة لا تزال محتفظة بهندستها الأثرية وبضيق أزقتها واعوجاج هذه الأزقة ووفرة السبابيط والأقبية المظلمة الرطبة فيها، كما كانت منذ بضعة قرون خلت، وبين البلد وساحل البحر بسيط واسع تبلغ مساحته نحو ١١٥٠ هكتاراً، كله بساتين برتقال وليمون اشتهرت بها طرابلس. وتشق هذه البساتين ثلاثة طرقات، أعرضها وأقدمها الممتد نحو الميناء، وكانت تمر لعهد قريب سكة حديد الترامواي،

والثاني حديث يمتد نحو محطة القطار، قبيل الحرب العامة كان عزمي بك في العهد العثماني الأخير متصرفاً في طرابلس ثم والياً في بيروت، وهو مشهور بهمته وحبه للعمران.

وفي مدينة طرابلس، ولاسيما في حيها الجديد المعروف بالتل فنادق ومطاعم ومقاهٍ ودور سينما عديدة عصرية تشبه ما في بيروت على نسبة مصغرة، في داخل المدينة حمامات عربية قديمة اشتهرت بنظافتها ومستشفيات بلدية وأجنبية، ومراتب سيارات ووكالات بواخر ومكتبات، وفيها مدارس للحكومة وأخرى خصوصية للطوائف أكبرها شأناً كلية دار العلم والتربية الإسلامية، من أنظم الكليات الداخلية الإسلامية، ومدرسة أخوة العائلة المقدسة (الفرير)، ومدرسة الأميركان، وللطليان والروم الكاثوليك والأرثوذكس.. وغيرها.. ولجميع الطوائف بيع ومعابد، منها كنيسة اللاتين والكنيسة المارونية وكنيسة الروم، والروم الكاثوليك، وكنيسة للبروتستانت، وللمسلمين الجامع الكبير المنصوري، وجامع المعلق ومساجد صغيرة عديدة أخرى، ولليهود كنيس.

وفي محطة طرابلس ينتهي القطار القادم من حلب وحمص، كما ينتهي القطار ذو الأسرة (راغوت لي) القادم من باريز مباشرة، وهو يفد ويعود منها وإليها مرتين في الأسبوع، والمحطة تقع في الساحل الشمالي وشرقي الميناء وتنقل ركاب مصر بالسيارات الشركة الضخمة إلى حيفا ومنها يستقلون القطار إلى مصر.

التاريخ: كانت طرابلس في العصور القديمة على سيف الجسر في مكان الميناء الحالي على نحو ما كانت عليه بلدة صورة وهي إنما بنيت قبل الميلاد بثمانية قرون لتكون محل وكالات تجارية، ويظهر أن شأنها لم يبدأ بالبروز إلا حينما جعلت مركز اتحاد للدول الفينيقية حور وحين وإرواد واسمها اليوناني (أم المدن الثلاث) إنما جاءها كل من الصيدونيين والصوريين والإروادين وسكن كل منهم في حي منفرد محاط بسور خاص، أما اسمها الفينيقي فقد ظل مجهولاً. إن الجزائر الصغيرة التي أمام الميناء وأسماؤها المدورة ونولا والبلان وفاطون كانت عهدئذ متصلة وآهلة بالسكان ثم حدثت زلازل هائلة نقلتها عن الميناء وفصلت بعضها عن بعض. ولما جاء الملوك اليونان السلوقيون ثم الملوك الرومانيون بعدهم، زينوا وجملوا هذه المدينة.

(قال في كتاب تاريخ العصور القديمة لجايمس هنري براستد المعرب طبعة بريت ١٩٣ ص ١٢٧ إن من جملة المدن الساحلية التي أهديت إلى الملك الآشوري آشور ناصر بعل الذي جاء بلاد الشام غازياً . ثلاث مدن هي مخلات وميسة وكايسة، وقد اتحدت هذه المدن في الأزمنة اليونانية المتأخرة وأطلق عليها اسم طرابلس، ومعناه المدينة المثلثة) وقد اختلفوا في مواقعها على أنه يظن أن واحدة فقط من هذه المدن كانت مكان ميناء طرابلس الحالي، دون أن يكون ثمة إمكان للتثبت من ذلك نهائياً. بما شيدوه من المباني الفخمة، منها ثلاثة هياكل مكرسة لإجلال الآلهة أجلها هيكل عشتروت، ثم هيكلا ديوسقورس إله طرابلس الخاص وزئوس هاكيوس وهذا يماثل أدونيس، ولا يزال في جنوبي الميناء قرب الجسر أعمدة ضخمة من الغرانيت الأسود، ربما كانت من بقايا تلك الهياكل) كما تدل أيضاً على ذلك رسوم النقود التي عثر عليها.

وأصاب طرابلس في أوائل القرن السادس الميلادي زلزال هائل خربها تخريباً شديداً. إلا أنها فيما يظهر أعيد بناؤها بسرعة، وآية ذلك أنه كان لها عام ١٤هـ/٦٣٥م أسوار عالية، وفي الواقع أنها في ذلك التاريخ حاصرها سفيان أحد قواد معاوية بن أبي سفيان. وقد عجز يومئذ هذا القائد عن فتحها حرباً فعمد إلى فتحها بالحصار والجوع. ولما أحس سكانها بنفاذ أقواتهم استغاثوا بقيصر الروم البيزنطي، فأرسل هذا إليهم سفنه فأخرجوا أهلها جميعاً على حين غرة، فلما أحس المسلمون المحاصرون صباح ذات يوم بالأمر ووجدوا المدينة خالية. فاسكن معاوية فيها جالية من اليهود، وأقام فيها حامية كانت تفارق المدينة وتعود إلى دمشق أحياناً. وكان أحد وجهاء البيزنطيين استأذن معاوية في الإقامة في طرابلس مع أسرته، فاغتنم هذا ذات يوم فرصة غياب الحامية العربية وقام بالاعتصام بالمدينة، وهكذا ظلت بيد البيزنطيين من سنة ٦٦هـ/٦٨٥م إلى ٨٦هـ/٧٠٥م، ثم استعادها المسلمون فظلت تحت حكم الخلفاء الأمويين ثم العباسيين إلى سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م وفي سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م جاء جابر أحد قواد الخليفة المعز الفاطمي بجيش واستولى على كل بلاد الشام باسم مولاه، فأخذ طرابلس فيما أخذ وحصنها. حتى أنه لما جاء القيصر البيزنطي حنا زيمس (الشمقمق) واستولى على حصن عرقة سنة ٣٦٣/٩٧٣ لم يجسر على مهاجمة

طرابلس وجرب بعده القيصر باسيليوس في سنة ٣٨٥/٩٩٥ أن يحاصرها لكنه أخفق في فتحها وهكذا ظلت طرابلس بيد الفاطميين إلى أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

ومنذ أول العهد الإسلامي بدأ ازدهار التجارة والصناعة في طرابلس. وكان فيها دار كتب عظيمة تحتوي على أكثر من مائة ألف مجلد، احترقت يا للأسف بحريق خلال قدوم الصليبيين.

وفي سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م شرع رايمون سان جيل دوجيل كونت طولوز بمحاصرة طرابلس. وظلت طرابلس تدافع سبع سنوات، وزارها ناصر خسرو قبيل منتصف القرن الخامس فرأى بيوتها ذات أربع أو خمس وأحياناً ست طبقات.

مما يذكر في القرن الخامس الهجري أن القاضي جلال الملك أبا الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمار جدد في طرابلس دار العلم ودار الحكمة وذلك في سنة ٤٧٢هـ لتكون مركزاً من مراكز التشريع، فنشرت العلوم والآداب وأصبحت طرابلس مدينة علم ودروس، وجهز هذه الجامعة الدينية بمائة ألف مجلد وربما كانت طرابلس على عهد ابن عمار، قبل استيلاء الصليبيين عليها، أول بلدة علمية في الشام على ما رأى الرحالة (فان برشم) ثم ازدهرت فيها في القرن السادس الهجري (مدرسة الباقية) ومنها نشأ أبو الفرج ابن العربي صاحب التاريخ المعروف به.

وكان فيها أربعة آلاف نول ودار علم فخمة ومكتبة عامرة بألوف الكتب (قيل ٣٠٠٠٠٠) التي كان جمعها القاضي أبو الحسن بن عمار ولما جاء الصليبيون ونزلوا على عرقا وهي لصاحب طرابلس فخر الملك محمد بن عمار بعث فاسترضاهم وفسح لهم أن يتجاوزوا البلدتين من غير أن يمسوها بضر. ولكن الصليبيين بعد أن فتحوا القدس عادوا لأخذ طرابلس وتم سقوطها بمعاونة الجنويين ٤/ تموز ٥٠٣ هـ /١١٠٩ ومداخلة هؤلاء الجنويين تشهد بها الآثار الإيطالية المشهورة في طرابلس. وقد نهبت المدينة يومئذ وأحرقت معها دار الكتب المذكورة. ولكن الصليبيين قاموا بعدئذ بترميمها وإعادة عمرانها، واستعادت طرابلس بسرعة حيويتها التجارية وشيد فيها عدة أديرة وبيع ومستشفيات.

وازدهر عمران طرابلس خلال ١٨٠ سنة في حكم الإفرنج، رغم مناحراتهم الداخلية والزلازل العديدة التي انتابتها، وصارت عهدئذ مركز أسقفية لاتينية ومركزاً صناعياً وثقافياً لبلاد الشام الشمالية ولم يكن فيها أقل من ٤٠٠٠ صنعة من نساجي الحرير. وكان يصنع فيها في ذلك العهد منسوجات من صوف الجمال والأقمشة الحريرية والأواني الزجاجية. كانت تعد من أجل صادراتها. وكان للنسطوريين واليعاقبة في ذلك العهد في طرابلس مدارس ذائعة الصيت يدرس فيها فيما يدرس علوم الفلسفة والطب.

وفي سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م بعد أن حاصر السلطان صلاح الدين الأيوبي صور ولم يفز بطائل جاء إلى طرابلس وحاصرها، لكنه رد عنها بشدة بفضل المدد الذي جاءها من الملك غليوم دوتيليسي الصقلي وفي سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣ استولى السلطان الملك الظاهر بيبرس على إنطاكية وذبح سكانها وضرب مبانيها النصرانية، وكتب يومئذ كتاباً إلى كونت طرابلس الذي كانت إنطاكية من إقطاعه يخبره بما جرى، وعقد وقتئذ هدنة، مكنت بيبرس من النفوذ إلى طرابلس وفحص أسوارها، ولما تولى الملك السلطان المنصور قلاوون وسمع بموت يوهموند السابع آخر كونتات طرابلس ٦٨٨هـ/١٢٨٨م جاء وحاصر طرابلس وركب حولها ١٩ منجنيقاً و١٥٠٠ جندي من نقابي الحصون ودام الحصار ٣٤ يوماً وانتهى بفتحها في ٢٦ نيسان ٦٨٨هـ/١٢٨٦م وذبح فيها ٧٠٠٠ صليبي ودكت المدينة دكاً.

ومنح السلطان المسلمين امتيازات عقارية فجاء هؤلاء وبنوا مدينة حديثة على بعد نحو مسير ساعة عن الجسر بقرب نهر أبو علي. وهذه هي البليدة الحالية ولأجل حمايتها من جهة الجسر بنى المسلمون مجموعة من مصانع دفاعية (أبراج) لا تزال بقاياها ممتدة على الساحل المذكور. وفي القرن ١٤ أغار افرنج قبرص على طرابلس ولم تضع بعد الحيوية التجارية كلها التي كانت بحكم موقعها الجغرافي، وقد قال القلقشندي في صبح الاعشى: (ج٤ ص ١٤٢)، هي مدينة من سواحل حمص، كانت في الأصل من بناء الروم، فلما فتحها المسلمون في سنة ٦٨٨م خربوها وعمروا مدينة على نحو ميل وسموها باسمها . ولما بنيت هذه المدينة الجديدة كانت وخيمة البقعة، ذميمة السكن، فلما طالت مدة سكنها وكثر بها الناس والدواب وصرفت المياه

الآسنة التي كانت حولها وعملت بساتين ونصبت بها النصوب والغروس خف ثقلها وخمها، ثم قال: وهي الآن مدينة متمدنة كثيرة الزحام وفيها مساجد ومدارس وزوايا وبمارستان وأسواق جليلة وحمامات حسان، وجميع بنائها بالحجر والكلس مبيضاً ظاهراً وباطناً وغوطتها محيطة بها وتحيط بغوطتها مزروعاتها وهي مدينة المشترف، ولها نهر يحكم على ديارها وطباقها، ينخرق الماء في مواضع من أعالي بيوتها التي لا يرقى إليها إلا بالدرج العلية وحولها جبال شاهقة صحيحة الهواء خفيفة الماء ذات أشجار وكروم ومروج ومواشٍ، ومينأوها ميناء جليلة تهوي إليها وفود البحر الرومي وترسو بها مراكبهم وتباع بها بضائعهم، وهي بلدة متجر وزرع كثيرة الفائدة وقد تقدم في الكلام على عجائب الشام أن داخل البحر بالقرب منها على نحو رمية حجر عن البر عيناً فوارة عذبة الماء تطفو على وجه الماء قدر ذراع أو أكثر تبين ذلك عند سكون الريح. وقال شيخ الربوة شمس الدين الدمشقي في كتاب نخبة الدهر والقسم الخامس من مملكة الشام مملكة الساحل وكرسيها (طرابلس) المستجدة بعد فتح طرابلس الشام بجيش المسلمين في مملكة الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي. بنيت هذه المستجدة في ذيل من أذيال جبل لبنان بكورة من أكوار طرابلس، بعدها عن طرابلس القديمة المخروبة نحو من خمسة أميال على ضفاف نهر يجري إلى البحر وهي بلدة جبلية بحرية برية يتخلل الماء في جوانبها، ولها قنطرة على وادٍ بين جبلين يمر عليها الماء من منبعه إليها في ارتفاع نحو من سبعين ذراعاً، وطول هذه القنطرة نحو من مائتي ذراع، والنهر يجري من تحتها إلى سقي الأراضي ويصب في البحر الرومي ولا يكاد يوجد دار فيها بغير شجر لكثرة تخرق أرضها بالمياه، وهذا النهر ينبعث من جبل لبنان، وقد جمعت في بساتين طرابلس من الفواكه مالا يوجد في سائر الأقاليم أصلاً كقصب السكر والجميز والحمضيات الكثيرة الزائدة والقلقاس الذي لا يوجد مثله والثلج وسمك البحر الطري والطير الكثير ومجموعها لم يجمع في بلد غيرها.

بعد أن كانت ذات أسوار عريضة جداً بحيث إنه كان باستطاعة ثلاثة فرسان أن يسيروا عليها حيناً إلى حين قال كاترو في كتابه ج٢، ص ١٠٣ و ١٠٤.

امتد عمرانها وبنيانها في القرن السادس وصارت مؤلفة من بلدة بحرية وأخرى برية.

الصناعة والتجارة - إن الصناعات الوطنية في طرابلس تشمل صناعة الصابون ودباغة الجلود، وحياكة الأقمشة الحريرية المخططة، وفي موقع الجصاص أسس معمل للغزل.

وفي محيط طرابلس ينتج الليمون والبرتقال وفي أرضها البعل الزيتون، وفي القرى المجاورة لها يكثر القثة والرمان والموز والذرة والحبوب المتنوعة. وينتج سهل عكار الحنطة والشعير، وتصدر طرابلس الزيت والصابون والحرير والليمون والبرتقال والصوف والجلود والحبوب.

زيارة الأماكن الأثرية - جامع طغيال - ويلفظ طيلان، وهو اسم بانيه سيف الدين طغيال مملوك السلطان محمد الناصر في سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٦م وكان كافل المملكة الطرابلسية في أيام السلطان محمد الناصر وحاجبه، وبناه سنة ٧٣٦هـ، وفي النظرة الأولى، تدل هيئة بنائه ولاسيما مرتسمات قبته على أنه من طراز عربي خالص. إلا أن الروايات تنبىء بأنه مبني في مكان كنيسة مهدومة خلال الفتح الإسلامي سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩، وهو يتألف من قسمين مفترقين، ففي الشمال مسجد، يلوح بأنه ربما كان صحن كنيسة القرن ٧هـ/١٣م. وفي الجنوب بناء مقبري فخم يدخل إليه من بوابة عظيمة فخمة للغاية مشيدة على أبدع الأنماط العربية في القرن ٨هـ/١٤م، وفي منارة هذا الجامع هندسة لطيفة ولها من داخلها سلمان أحدهما سقف للآخر، فإذا أراد المؤذن الصعود للأذان من داره الملاصقة للمسجد دخل من باب المنارة صاعداً أعلاها، وإذا أراد النزول للصلاة دخل من باب آخر يصل منه إلى داخل المسجد وعلى هذه الصورة فباب المنارة السفلى الخارجي أدنى من أرض المسجد بقدر قامة الإنسان.

في قرب جامع طغيال، مسجد صغير مهم اسمه الصقرقية تقطنه أسرة فقيرة، له باب جميل وكتابات أثرية وقبة)، وإذا دخل السائح من بوابة الحدادين يصادف جامعاً اسمه (المعلق) فيه أيضاً كتابات.

وفي غربي البلد حي حديث يعود زمن الشروع بعمرانه إلى الربع الأخير من القرن الهجري الماضي، اسمه (التل) ازداد اتساعه وعمرانه بعد الحرب العظمى، وفيه

شوارع عريضة وقصور ودور وفنادق شاهقة جميلة، ودار للحكومة وأخرى للبلدية، ومرائب سيارات ودار البريد ودور سينما ومطاعم وبها مقاهٍ عديدة. وفي وسطه ساحة فسيحة أسس فيها حديقة بلدية عامة، وفي جانبها برج ساعة مربع الشكل زائد الارتفاع بني في سنة ١٣١٨هـ ذكرى العيد الفضي للسلطان عبد الحميد الثاني، ومن هذه الساحة تبدأ طريق الميناء العريضة وقد كان فيها خط الترامواي للشركة الوطنية، ظلت حافلات هذا الخط تسير على هذه الطريق منذ سنة ١٢٩٦ إلى أن عجزت عن مباراة السيارات، وهي من أجمل طرق بلاد الشام، وروائح زهور الأشجار النارنجية في فصل الربيع مما يبهج وظل يوسف باشا معيناً في ولاية طرابلس ٤٥ سنة إلى أن توفي سنة ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م وكان قد عين وزيراً على طرابلس لكسر شوكة الأمير منصور الغساني. وبنو سيفا أمراء أكراد ينتسبون إلى المقدم جمال الدين الملقب سيفا من مماليك السلاطين الشراكسة، اشتهروا في طرابلس وعكار وحصن الأكراد وأشهرهم يوسف باشا هذا.

وآخر أمراء الغسانيين محمد ابن الأمير المنصور أتم قصر غزير وجامعها. وسار لمقاتلة يوسف باشا لتحصيل المال الميري الباقي عنده، فقتله الكامنون من قبل يوسف باشا من البترون وقلعة المسيلمة فانقرضت به ولاية الغسانيين الذين ملكوا كسروان ٢٨٣ سنة، وعدلوا في أحكامهم وعمروا البلاد. فخلفهم يوسف باشا المذكور في أموالهم وأملاكهم ومازال حتى اشتد الخصام بينه وبين الأمير فخر الدين المعني الثاني وكان اليوسفيون يمانيين والمعنيون قيسيين، فضايقهم الأمير فخر الدين بموقعه عكار سنة ١٠٠٤/١٥٥٩ وأحرق جميع دورهم فيها، ونقل حجارة قصور اليوسفيين إلى دير القمر.

الأماكن الأثرية في طرابلس ذات الكتابات: الجامع الكبير المنصوري، جامع القرطاوية، جامع طيغال، قلعة طرابلس، مدرسة الصقرقية، الخاتونية، المدرسة الرفاعية، جامع أرغون شاه، جامع التوبة، جامع المعلق.

وأزهرت طرابلس على عهد سيف الدين ارنومر الذي بنى القلعة وحماماً وسوقاً، وأنشأ فيها مجاري المياه الغريبة في تقسيمها إلى جميع طبقات الدور ليأمن ساكنوها من الحمى في الطبقات الأرضية، وحمامه الذي بناه في سنة ٧٠٩ هـ أجمع من رأوه أنه

ما عمر مثله في البلدان، وعمر قيسارية وطاحوناً وأنشأ لمماليكه بها مساكن حسنة البناء ذات طبقات يصعد إليها الماء، وعمر بعض القلعة وأقام أبراجاً، قاله النويري (الخطط) ٢/١/٤١.

السيارات السريعة: باعتها الشركة الوطنية إلى شركة الترامواي الكهربائي في بيروت سنة ١٩٢٩ فوقف عن السير يوم ٣٠ نيسان ٩٣٣ على أن تسيرها بالكهرباء، إلا أن هذه الشركة عدلت فيما يظهر عن عزمها، فظل النقل منحصراً بالسيارات.

وفي طرف ساحة التل طريق معبدة مدرجة يصعد فيها السائح إلى (التل) وفيه حديقة واسعة ومقهى جميل يشرف منه على مناظر غاية في الروعة تجمع زرقة البحر وحمرة رمال الشاطئ وخضرة حدائق الليمون والبرتقال، وزكاء روائحها العبقة في فصل الربيع وجمال الدور الحديثة المشيدة أمام هذا التل.

وإذا غادر موقع التل واتجه شرقاً نحو البلد يجتاز أسواقاً ضيقة على جوانبها حوانيت عديدة لمختلف السلع والحرف، منتهاها سوق الصاغة حيث اكتظت فيه حوانيت البدالين والبقالين، وقبله خان أثري كبير يدعى خان الصابون، وبعد هذا ينحرف نحو اليمين ويمر من بين حوانيت الصائغين، فيصل إلى الجامع المنصور الكبير، وهذه النسبة غلط، لأن الذي بناه على ما يرى في الكتابة المزبورة فوق باب الجامع الشمالي السلطان صلاح الدين خليل الأشرف ابن السلطان المنصور قلاوون في سنة ٦٩٣هـ.

ويزعم كتبة الإفرنج أن هذا الجامع كان قديماً كاتدرائية القديسة مريم البرجية في عهد الصليبيين بنيت هذه الكنيسة فيما قيل في أوائل القرن ١٢ م ثم دكتها الزلازل في سنة ١١٧٠م فأعيد ترميمها في القرن ١٣م، ثم هدمت سنة ١٢٨٧ لأجل بناء هذا الجامع، وإنما سميت باسم القديسة مريم البرجية لشكل مأذنتها الرهيبة.

قد قام الجامع الحالي مكان الكاتدرائية القديمة، وعلى أن شكله يبدي للوهلة الأولى كل مزايا المباني العربية، فهو مبني على التصميم المدرسي الكلاسيكي للمساجد العظيمة، فهو يحتوي على أربعة أروقة تكتنف مساحة

واسعة مبلطة مستطيلة الشكل، في وسطها مصلى وحوض وضوء كبير في جنوبي الساحة، والصحن الحرم، وهذا الحرم مؤلف من مضاعفة متوالية، في منتهاها الجنوبي المحراب والمنبر وهما تحت قبة. وهيئة هذا الحرم في الجملة باردة وخالية من كل رونق وبهاء، وسطوره المسحوقة قد طمست ببلاط أبيض شمل كل جدرانه. وعلى عقبة الباب الشمالي لهذا الجامع كتابة عربية تنسب بناء الجامع إلى السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون وذلك بعد فتح طرابلس بخمس سنوات من قبل أبيه الملك المنصور قلاوون.

ولم يبق من آثار الكاتدرائية القديمة إلا القليل، فالمدخل الكبير الفخم في شمال الجامع الذي لا يزال ماثلاً ودون طلي وتسوية هو قطع الكاتدرائية المذكورة دون ريب. إلا أن المكان المعقود الذي يتقدم هذا المدخل هو مما أضافه العرب فيما بعد، وفي اليسار قبل اجتياز وبلوغ المدخل يلحظ نافذة ذات قوس منكسر مع قسم من مسند عقد ذي متكئة تاريخها من العهد الصليبي، والواجهة الداخلية للمدخل من النمط الروماني، فهي مؤلفة من قوس ذي منحدر عميق، لأن الجدار ثخين والواجهة الأخرى أحدث عهداً، فهي مرممة في القرن ١٨م، وتحتوي على ثلاثة مساند عقود اثنان منها مزخرفان بخطوط حلزونية. والأخير يرتكز على أعمدة صغيرة رقيقة تعلوها تيجان فوقها ثلاثة صفوف من الشناكل. والباب الغربي لصحن الجامع هو أيضاً بقية جميلة لمدخل الكنيسة في القرن ١٢م، وهذه فجوة ذات عتبة ذات حجر بارز كبير يسندها، مع جوف اذن ذي عقد منحنٍ ومسند عقد واحد، والمدخل الجنوبي للجامع ليس فيه مايذكر، والمئذنة الموضوعة في استقامة المكان المغطى عند الباب الشمالي ينبغي أن تكون برج جرس في واجهة الكاتدرائية. وهي تظهر لمحة الفن اللومباردي، ولعل تاريخها من القرن ١٢م أو القرن ١٣م، وقد طلاها المسلمون بالكلس وجصصوها، ويا للأسف: وهذا البرج أوجب تسمية هذه الكاتدرائية بالقديسة ماري البرجية.

وبجانب الباب الشرقي للجامع الكبير يوجد جامع ثانٍ يدعى (جامع قرطباوية) بناه الأمير (قرطاي بك)، بعد الجامع الكبير بمدة وكان قرطاي بك من مماليك السلطان قلاوون، تولى نيابة طرابلس من (١٣١٦ - ١٣٢٥)م وفي وسط حرم هذا

الجامع حوض ماء كبير للوضوء، وله مدخل سامي الارتفاع مزين بأعمدة ذات تيجان رومانية لاتينية مأخوذة من مبانٍ سابقة، مؤلفة من أوراق طويلة. ويلوح أن جامع قرطاي بك مبني مكان (دار التعميد) التي كثيراً ما يبنونها في قلب الكاتدرائيات، وأن التيجان المذكورة كانت لها.

ومن سوق البدالين المسمى بالصاغة ينحرف نحو اليمين ويصعد في عقبة مبلطة ذات ميل خفيف تأخذه إلى (القلعة) التي يسميها الإفرنج حصن ريموند القديس دوجيل.

(يلج الزائر إلى القلعة من جسرها الشمالي الذي في قربه مقبرة إسلامية صغيرة، ويدخل من باب مدرع بالحديد . والزيارة منحصرة في يومي الجمعة والأحد، وقد تزار في كل يوم لقاء منحة للحارس.

في عام ٤٩٤هـ/١١٠٠م كان الكونت ريموند الطولوزي استقر بجيشه على هذا الجبل المشرف على وادي قاديشا وعلى مدينة طرابلس وعلى ساحلها كله، ففكر في أن يحول هذا الموقع إلى قصر محصن تحصيناً قوياً ينقلب بعد إلى قلعة طرابلس حينما ينتهي حصارها ويستلمها الصليبيون وسمي هذا الجبل جبل الحجاج. ومن ثم بنى القصر ولكنه احترق في سنة ١٢٨٧/٦٧٧ ثم رممه ترميماً مكرراً الأمير اسندمر الكرجي في سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م ٧٠٨هـ/١٣٠٨م وهو ولا يزال في القلعة، من آثار هذا القصر الصليبي بأسس جدران قديمة كما أن الجهة الشرقية التي من ذروة الجبل تشرف على داري قاديشا، وهي من تلك الآثار)..

في داخل القلعة جدار الكنيسة التي كانت في القرن ٦هـ/١٢م لا يزال باقياً، وكانت هذه الكنيسة مؤلفة من صحن واحد معقودة ومن حنية أقواسها البارزة كانت مرتكزة على أعمدة قد اقحمت وسط انصاف دعامات ذات شكل صليبي، ولا يزال ثمة أنقاض منها ذات شأن، وقد كانت هذه القلعة في العهد العثماني الأخير سجناً عاماً.

ومن سطح القلعة يطل الزائر على مناظر غاية في الروعة والجمال، على البحر والسهل وسلسلة جبال لبنان الشامخة فوق طرابلس، وفي سفح الجبل الذي انتصبت فوقه هذه القلعة (تكية دراويش المولوية) المبنية على الضفة اليسرى لوادي قاديشا

الجميل وفي جنوبها الغربي وعلى طرف البلد جامع طغيال، وفي الغرب السهل لافح الفاصل بين البلد والميناء المكتظ بأشجار الليمون والبرتقال الدائمة الاخضرار والازدهار.

وإذا سار في طرف القلعة الشرقي يهبط من شعب متعرج إلى قعر وادي قاديشا، فيسير في هذا الوادي على ضفتيه الشرقية ويصل بعد ٣٠٠ متر إلى (تكية دراويش المولوية) وفيها سكن المشايخ والدوران، وعدة برك تتدفق منها مياه غزيرة ذات خرير داو مطرب، وفي هذا الموقع مناظر جميلة على نهر أبو علي والطواخي التي حوله والمنحدرات المزدانة بأشجار الزيتون، والقلعة الشامخة بأسوارها.

وصف قلعة طرابلس

قلعة طرابلس قائمة على ظهر أكمة كبيرة تشرف على البلدة من جهتها الغربية وتطل على نهر قاديشا من جهتها الشرقية وهي مستطيلة متعددة الأضلاع يبلغ طولها من مدخلها الشمالي إلى أقصى طرفها الجنوبي ١٣٦م ومعظم عرضها يتجاوز الـ ٧٠م، أما تحصيناتها فقسمان داخلي وخارجي، فالخارجي مؤلف من خندق وسلسلة (أبراج وسجون) والخندق محفور في الصخر عند طرفه الغربي ومبني فوق سطح الأرض عند الطرف الآخر، وهو يمتد من ركن القلعة الشمالي الشرقي إلى ركنها الشمالي الغربي، ويتجاوز طوله ٧٠م ومعدل عرضه خمسة أمتار وعمقه نحو ٢ ـ ٣ أمتار.

وسلسلة الأبراج والسجون تتألف من ٢٥ برجاً وسجناً، فعلى يمين باب القلعة الكبير ويساره برجان كبيران، وفي أحد هذين البرجين باب المدخل إلى القلعة عليه قوس من النوع المنكسر، وفوق القوس رخامة بيضاء عليها كتابة عربية تذكر أن السلطان سليمان القانوني أمر بتجديد البرج سنة ٩٢٧هـ. لا يتجاوز ارتفاعهما خمسة أمتار وثخن جدرانها عند السطح ١٢٠ سم، وفي أعلى هذين البرجين أربع طبقات وعدد وافر من المزاغل والمكاحل والشراريف، وفيها عدة أعمدة روابط قديمة استعلمت لربط مداميك الجدران ومرتبة ترتيباً هندسياً متقناً. وإذا استمر السائر

نحو اليسار نحو التحصينات الغربية والجنوبية المشرفةعلى المدينة يجدها مؤلفة من سبعة أبراج وأربعة سجون. ويجد في أعلى الجميع عشر طاقات للمدافع وعشرة فراغل. أما سمك هذه الأبراج والسجون فإنه يتراوح بين ٦ و ٧ م وثخن بنيانها عند السطح يتراوح بين ١٢٠ ـ ٢٤٠ سم.

أما الأبراج الشرقية المطلة على وادي قاديشا فثخنها قليل لا يتجاوز ٥٠ ـ ٦٠ سم ولكن علوها شاهق يبلغ في البرج المستدير ٢٠ متراً وهي قليلة فتحات المدافع ولكنها كثيرة المزاغل نحو ٥٠ مزغلاً، وفي أعاليها شراريف تتجاوز الخمسة.

وفي هذه التحصينات ماعدا الباب الكبير الذي فيه بويبان سريعان أحدهما في أسفل البرج الذي في الركن الجنوبي الغربي والثاني في أسفل البرج البارز الذي في وسط الأبراج الشرقية.

أما التحصينات الداخلية فمؤلفة من برجين كبيرين، يقعان وراء برجي السلطان سليمان فالأول منهما مربع الشكل يبلغ طول ضلعه الشرقي ١٤م وسمكه الشمالي ١٧ وغلظ جدرانه عند السطح ١٢٠ سم، وهو من المدافع الثلاثة فقط، أما الثاني برج بشكل مربع منحرف طوله ١٢.٢٨م وعرضه ١٢.٤٢ م وفيه طاقتا مدفع وخمسة مزاغل.

وفوق أبراج التحصينات الغربية سطح فسيح مستطيل الشكل أبعاده ٨٠×١٠ أمتار، مبني فيه بعض الأحياء المكتظة والمآذن العديدة.

وعلى بعد ٢ كم من التكية المولوية إلى مورد النهر، يصل إلى قناة ماء من الحجر مرتفعة فوق النهر، ممتدة بين عدوتي الوادي، تحمل منذ عصور مياه نبع رشعين القديمة إلى مدينة طرابلس، وتصب في خزان كبير في شمالي القلعة. ومازال الأهلون يدعون هذه القناة (قناطر البرنس) ويعنون به أحد الأمراء الصليبيين اللاتينيين الذين حكموا طرابلس، وهي مبنية من أحجار صغيرة وكبيرة ومحمولة على دعائم ضخمة تجمعها ثلاث قناطر مدببة.

وإذا عودة في مشيه يتبع ضفة القناة اليسرى ويترك القلعة على يساره فيدخل في أزقة قديمة تستحق التصوير، ذات عقود وسبابيط كثيرة متوالية حتى يصل إلى (الجسر القديم) عند باب الحديد وعلى هذا الجسر أيضاً منظر جميل يشرف على

الأحياء والدور اللاصقة بضفتي النهر.. وثمة قرب الجسر المذكور جامع البرطاسية وفيه كتابات عديدة.

وإذا عبر الجسر المذكور إلى الضفة اليمنى ودخل (السويقة) يشاهد فيها دوراً قديمة ما برحت محتفظة بمسحتها الأثرية، ولاسيما مدرسة الزريقتين وهي مسجد مهجور فيها كتابات.

ثم يعود ليصور نهر قاديشا من فوق (الجسر الجديد) وعلى طرفيه حوانيت عديدة تذكر سياح الإفرنج بجسر فيجو في فلورنسا. ومنه يجتاز أسواقاً عديدة منها سوق الجراح الذي فيه أعمدة وبقايا دعائم أثرية في سوق الزركان الحافل بحوانيت باعة الأقمشة المتنوعة، ويزور الثكنة العسكرية (خان السكر) وينسبها الإفرنج خطأ إلى الفرسان الهيكليين..، على حين أن بناءها مجهول، وجدران هذه الثكنة غاية في التحف ولها طبقتان، السفلى اصطبلات ومهاجع للجنود، وكانت طول العهد العثماني ثكنة للجنود الفرسان، وفي قرب الثكنة جامع التوبة على شكل مصغر للجامع الكبير، وجامع العطار وفيه كتابات أثرية، وجامع الدباغين.

وغرفة كانت تتخذ مستشفى للجند العثماني المرابط في طرابلس.

وقد دل التحقيق أن هذه القلعة عربية إسلامية، بني بعضها الأمير استدمر الكرجي حول سنة ٧٠٩ هـ ورمم وجدد بعضها السلطان سليمان القانوني ثم الولاة والحكام الذين تعاقبوا على الحكم في طرابلس ومنهم مصطفى آغا بربر، الذي لا يزال اسمه منقوشاً فوق محراب مسجد صغير في البرج الشمالي الكبير في سنة ٢١٦، وفوق مدخل هذا البرج أيضاً عتبة من الرخام الأبيض عليها كتابة طويلة من عهد الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون أن يسامح الجنود والأمراء بما قد يبقى في ذمتهم من فروق الرواتب الحاصلة من تفاوت السنين الشمسية والقمرية.. الخ من تاريخ ٧٤٦هـ على أنه قد كان مكان هذه القلعة الحالية قلعة صليبية هدمها المسلمون زمن الفتح واستعملوا بعض أحجارها وأسوارها في تضاعيف القلعة الحالية.

(عن نشرة صغيرة عن قلعة طرابلس الشام للأستاذ أسد رستم)

الميناء ـ يصل إلى الميناء راكباً إحدى السيارات، وبينها وبين البلد ٣ كم، والطريق من أبهج طرق بلاد الشام تحف به بساتين البرتقال والليمون البهيجة.. وكانت إلى عهد قريب تزداد بهجة بحافلات التراموای المجرورة بالبغال ذات الأسطحة، وهي بلدة سكانها ٧٠٠٠ مسلم سني و ٣٥٠٠ نصارى معظمهم روم أرثوذكس. فيها مرفأ طرابلس وللميناء مرفأ حديث أسس عام ١٩٣٣ له جدار لكسر الأمواج، إلا أنه لا يكفي إلا لالتجاء السفن الشراعية والبواخر الصغيرة.

أما البواخر الكبيرة فقد كانت ولا تزال تضطر للابتعاد كثيراً عن الشاطئ، لقلة عمق الماء وطول الجدار المذكور ألف متر، وعرضه يفوق العشرة أرادوا به فيما زعموا أن هذا المرفأ لرسو الطيارات الحربية، وقد كلف بناء الجدار المذكور وله قسم من الساحل نحو ٨٥٠٠٠٠ ليرة سورية وقد أسس في الأرض التي ضمت محطة للطيارات الحربية التي تغدو وتروح من وإلى طرابلس في الأسبوع مرتين.. تقدم في بحث تاريخ طرابلس أنه بعد فتحها وإخراج الصليبيين منها رأى المسلمون ضرورة للدفاع عنها تجاه غارات الصليبيين الذين كانت أساطيلهم لا تفتأ عن المجيء. فشيدوا في الميناء على طول الشاطئ سلسلة من الأبراج اندثر معظمها ولم يبق إلا اثنان، أحدهما برج السباع قرب المحطة، ويزار باجازة من مدير المحطة.

وهذا البرج ما برح منتصباً على شاطىء البحر تهاجمه الأمواج، بين الميناء ومصب نهر أبو علي. وهو على شكل مكعب عظيم ذي أسس متطاولة، والقشرة الخارجية لجدرانه تتألف من أحجار ضخمة (بلوكات) من أحجار التشبيك ذات رفوف طويلة ومن الأحجار السورية المنحوتة نحتاً محدودياً وقد أحشي بين هذه الأحجار بالعرض قطع من أعمدة الربائط لتشد المداميك بعضها ببعض وهذه الأعمدة إما قديمة مستعارة أو مقلدة عن غيرها وثمة باب واطىء خرق في قعر فجوة عالية يحيط به دعامتان وقوس مدبب وحول الباب ينفتح بضعة مزاغل النشاب وينفتح في الطبقة الأولى نوافذ مستطيلة الشكل.

لم يبق في الميناء من الآثار القديمة شيء. لأن الفاتحين هدموها إلى الأرض. لكن بقي عند طرفها الجنوبي على طريق (فوق الريح) قطعة من السور العتيق يتجه عن الحد الذي بلغته يومئذ.

وفي الميناء خمسة جوامع تقام فيها صلاة الجمعة ومسجدان، وعدة كنائس ككنيسة مار الياس للارثوذكس وكنيسة للموارنة وكنيسة للفرنسيسكان ومستشفى للاميركان وآخر للموارنة ومستودع جمرك، وعلى شاطئها من الأبراج السبعة مكان برج الشيخ عفان وبرج الوفص .

وأمامها إلى الشمال الغربي سلسلة جزر صغيرة تمتد إلى مسافة كيلو متر منها جزيرة البقر وجزيرة طولون وجزيرة النخلة وجزيرة رمكة، ولعل هذه الجزر كانت متصلة ففصلتها الزلازل وفي شرقي الميناء بنوا حديثاً رصيفاً للطيارات المائية، وبعده مرفأ صغير لا يتسع إلا للزوارق ووراءه محطة السكة الحديدية الذاهبة إلى حمص وحماه وحلب.

سبعة أبراج من بناء السلاطين المماليك نذكرها باعتبار مواقعها من الشرق إلى الغرق فالأول برج العدس في شرقي مصب نهر أبو علي بينه وبين البداوي، والثاني برج رأس النهر عند الضفة اليسرى لمصب نهر أبو علي، والثالث برج سباع أو برج السباع عند محطة السكة الحديدية وهذا ما برح قائماً ومتخذاً مستودعاً. والرابع برج الفاخورة والخامس برج الديوان أو برج الشيخ عفان، والسادس برج البغا وفيه دار حكومة البناء والسابع والأخير برج المغاربة، ولعل هذه الأبراج كانت ثمانية لورود الاشارة إلى برج ثامن في البحصاص في كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري.

ومعيشة سكان الميناء من الملاحة والحمالة وصيد السمك، وكانوا قبلاً مشهورين باستخراج الإسفنج، وعدد سكانها ٦٠٠٠ نصفهم مسلمون ونصفهم نصارى، وكان عدد النصارى قبل تهافتهم على الهجرة إلى أميركا ضعفي عدد المسلمين.

وليس في الميناء سوى خان كبير يقع أمام الجمرك يدعى خان التماثيلي يعود بناؤه قبل قرنين ونصف، بناه ووقفه الوزير محمد بك الدفتر دار التماثيلي، وله عدة خانات أحدها في جبلة والثاني في اللاذقية، وكلها وقف لذريته. ذكر شيخ الربوة جزيرة النخلة قال (بجبال طرابلس الشام صغيرة بها جزائر صغار فيما بينها وبين الساحل).

وداخل البرج معقور وهو مستعمل الآن مستودعاً للسلع التجارية، ونمط عمارة هذا البرج تدل على أنه من القرن ١٤م ويعزى بناؤه إلى الأمير آي طوغمش، في عهد السلطان برقوق. ولم يبق من السباع المنقوشة التي كانت فيه أي أثر أو أي شاهد، رغم أن اسم البرج يدل على وجودها.

وعلى بعد ١,٥ كم إلى الشرق، قرب جسر المحطة الحديدية الممتد فوق نهر أبي علي، يوجد برج آخر يدعى برج رأس النهر، في زيارته بعض الفائدة. فهو حصن مربع ذرعه نحو ١٧ متراً من كل جهة، وزواياه قد حصنت بنوع من البريجات الثلاثة الأسطوانية الشكل، وفي جنوبي هذا البرج باب ينفذ منه إلى الطبقة السفلى، ولهذا من بهو واحد في وسطها دعامة مركزية تحمل عقداً ذا زوايا بارزة، وفي الجناح الشمالي كان أضيف برج نصف اسطواني ذو جدران أقل ثخناً من الأول فتح في وسطها ثلاث فتحات للرمي.

البداوي. وفي شرقي طرابلس، في طريق حمص، وعلى بعد ٣ كم منها، يوجد (قبة البداوي)، وهي زاوية صغيرة للدراويش وحرم هذه الزاوية أو المصلى حديث البناء، لكن القسم الغربي المتخذ مسكناً قديم العهد، ويزعم نصارى طرابلس أنه هو البقية الباقية حتى يومنا من كنيسة كانت هناك في عهد الصليبيين مكرسة للقديس انطونيوس البادوي.

وأمام قبة البداوي وشرقها عين ماء ثرة تتفجر وسط حوض واسع نصف مدور بني حوالي سنة ١٣١٧ هـ تزدحم فيه ألوف من السمك الأسود الذي يحترمه الأهلون ولا يمسونه قط وفي هذا الاحترام مسحة من بقايا عبادة الأسماك المقدسة التي كانت في عهد الحثيين. وهذا السمك شفوف جداً يأكل حب الحمص المحمص (القضامة) فإذا القيت حبات منه تهافتت الأسماك عليه وشوهد لها منظر ممتع، وهذا المكان من منتزهات طرابلس البهيجة التي تقصد كثيراً.

وفي الميناء خمسة مساجد جوامع ومسجدان صغيران زوايا، فالجوامع، الجامع الحميدي وجامع غازي نسبة لأحد أفراد أسرة بني غازي، والجامع الكبير العالي وجامع الداكير وجامع حارة الجديدة وهي حارة حديثة نائية في جنوبي الميناء.

أخبر لوقيان في كتابه المعنون بآلهة السوريين: إن الأقدمين كانوا أثبتوا بركاً قرب هياكل آلهتهم لاسيما عشتاروت وكان في هذه البرك عدد غفير من السمك يعظمه القوم.

من طرابلس إلى الأرز

من طرابلس إلى الأرز طريقان الأول ٦٣ كم يمر بأميون وحصرون في الضفة اليسرى لوادي قاديشا، والثاني /٦١ كم/ يمر بزغرتا وإهدن في الضفة اليمنى لوادي قاديشا. وننصح أن يكون الذهاب من الأول والرجوع من الثاني، وبذلك تبقى المهاوي السحيقة والمنعرجات الصعبة على يسار السيارة الصاعدة أو النازلة مما يزيد في اطمئنان الراكبين. وإذن تكون هذه الجولة ١٢د٤ كم.

يغادر طرابلس من جنوبها خارجاً من بين مقبرة باب الرمل ومحاذياً جبل أبو سمرة وفي هذا دور حجرية وخشبية عديدة راكب بعضها فوق بعض في الكم ٢.٥ جسر الجصاص. وهنا يترك طريق بيروت وينحرف نحو اليسار ويتسلق طريقاً متجهاً إلى الجنوب الشرقي قد شق في التلعات الصخرية لسهل الكورة السفلي وهذه التلعات تفصل بين الساحل ووادي قاديشا في الكم ٤ ظهر العين . في الكم ٨ بطراطيش (في الكم ٩.٥ فرع على اليسار يمكنك من الاتجاه. دون أن تمر بأميون. نحو كسبا، فتصل فيه بعد ٦ كم إلى بصرما، وفيها كنيسة قديمة من عهد الصليبيين، ومن بصرما أيضاً طريق ٦ كم، يوصل إلى سطح الانصباب الآخر لوادي قاديشا ويلاقي بعد قرية داريا طريق طرابلس. أهدن على قرية عرجس، ثم يلاقي الكم ١٥ قرية كسبا.

عودة. في الكم ١٠ غابة. في الكم ١٤ قرية بطرام سكانها روم ارثوذكس مبنية فوق أكمة صغيرة عند طرف الطريق وفيها منظر جميل يمتد نحو سهل الكورة المكتسى كله بغابات من أشجار الزيتون وكأنه خضم من الخضرة، في الكم ١٤.٢ على اليمين طريق يهبط نحو البحر في منعرجات عديدة فيلاقي طريق

بيروت، وهو يصل من القرى في الكم ٢.١ إلى لشمزين. وفي الكم ٤.٥ كفر حزين. وفي الكم ٩.٥ شكا العتيقة. وفي الكم ١١.٥ شكا الجديدة.

عودة . في الكم ١٦ اميون . مركز ناحية الكورة وأكبر قراها، وقاعدة القضاء سابقاً. وتعد من أمهات قرى لبنان وأكبرها بسكانها ٣٠٠٠ روم ارثوذكس تعلو ٤٠٠ متراً، مبنية على هضبة مستطيلة في حدود غابات الزيتون وأشجار الزيتون في حوار اميون عظيمة فخمة جداً وفيها محكمة بداية ومخفر درك ودائرة برق وبريد وفيها عدة كنائس، منها في الشمال كنيسة جديدة باسم مار يوحنا مبنية على شفا جرف صخري هائل، له جبهة في الجنوبي الشرقي المائلة وارتفاعه أكثر من ٢٥ متراً، فيها كوى عديدة عجيبة الشكل كانت تتخذ لدفن الموتى في العهد الفنيقي الروماني.

وفي أعلى الهضبة الحاملة للقرية كنيسة كبيرة باسم القديس جاورجيوس يظهر أنها مبنية ثانية فوق جدران أثرية ما برحت سالمة، تدل على أنها بناء روماني، وفي وسط القرية كنيسة أخرى باسم مارفقاس، بناؤها أثري غريب الشكل، رممت في سنة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥، يقال إن موريق قائد يوستينانوس الذي قتل رهبان دير مار مارون على العاصي ولحق الموارنة إلى هنا، قتلوه فدفن فيها وهندسة هذه الكنيسة وبقايا الصور الملونة التي فيها وطراز بنائها كل ذلك يدل على أنها من العهد البيزنطي. وفي الطرف الجنوبي للصخرة الحاملة للسراي كهف مقبري قلبوه إلى كنيسة باسم القديسة مارينا، أمام بابها أطلال كنيسة أخرى ربما كانت من العصور المتوسطة.

من أميون إلى دمعا (٢٠ كم، جنوباً)، طريق بعد ١ كم من أميون يترك طريق الأرز وينحرف إلى الطريق الأيمن في الكم ٢ بزيزا، قرية صغيرة فقيرة مارونية، مبنية، فوق أكمة تعلو عن الطريق وتطل على سهل بعضه مسقي، وفي هذه القرية كنيسة صغيرة فيها صور بيزنطية ملونة قد سترت بالطلاء، وفي قمة الأكمة هيكل روماني ذو أحجار ضخمة، ذرعه ١٠ وعلوه ٥ ـ ٧ أمتار قد زينت واجهته برواق جميل رشيق لا تزال أعمدته منتصبة (٣ على ٤) تحمل ريازة من الطراز الأميوني وقد بنوا في عهد البيزنطيين كنيسة في هذا الهيكل.

وفي بزيزا فرع طريق يأخذ (بعد ٣ كم) إلى قرية دار بعشتار (بيت عشتروت) وجدوا تحتها في سنة ١٩٢٤ كهوفاً مقبرية استخرجوا منها عاديات مختلفة كقطع نقود وكسور أوانٍ خزفية.

وفي الكم ١٠ (دير بلا) ضيعة فقيرة مارونية علوها ٨٠٠ متر في الكم ١٣ كفر حلدا ضيعة جميلة روم أرثوذكس، في منتهى واد خصب خضر، نضر يجري فيه نهر الجوز.

في كفر حلدا طريق يعملون في إتمامه، يأخذ مباشرة إلى الشروف بعد اجتياز نهر الجوز ماراً بقرى جبلية في كم ١٢ ويقسمایاني كم ١٤ وكفرعايا في كم ١٧، وهذا الطريق يمكن من الوصول إلى الأرز مباشرة إلى البترون دون أن يمر بطرابلس.

في الكم ١٦ مزرعة بيت شالا، في الكم ٢٠ دوما، قرية كبيرة ذات دور جميلة، سكانها ١٢٨١، أكثرهم روم أرثوذكس، علوها ١٠٠٠ متر، ذات موقع جميل وماء عذب مبنية فوق أكمة وسط بقعة بهيجة من الجبال الصخرية المكسية بالغابات، وهي مركز ناحية ومحكمة صلح ومخفر درك ومكتب برق وبريد. في أسفل القرية وأمام نبع عين التحتى ناووس من الحجر الكلسي عليه كتابة يونانية أثرية جميلة. ومعنى الكتابة فيما قيل أنه دفن هناك كاستور كاهن إله الطب وآلهة الصحة وبها تهديد لمن ينتهك حرمة المدفن.

ومن دوما مجاز نحو الغرب يوصل بعد مسير ساعة إلى مزرعة بشللة، وفيها خرائب ذات شأن اسمها (قلعة الحصن) مبنية فوق هضبة صغيرة علوها ١٢٦٠ متراً، فيها منظر رائع واسع الامتداد وثمة أطلال عمارة ربما كانت من العهد الروماني حول صخرة بشكل نبات الفطر، في قمتها جرن قرابين ويحيط بهذه الأطلال سوران، وفي قربها مقبرة صخرية.

(من دوما إلى تنورين الفوقا نحو ٢,٥ ساعة في مجاز رواحل) يسير أولاً في قعر وادي نهر الجوز النضر الزاهي بالغابات، وفي عدوتي الوادي جدران عمودية من الجبال الشاهقة الرهيبة وبعد ١,٥ ساعة تنورين التحتى، فيها نقوش أثرية بثلاثة أشخاص قد سحقت رؤوسهم، وعلى جانب سطح الانصباب الشمالي ويرحوب للموارنة وبعد ٢,٥ ساعة تنورين الفوقى، علوها ١٤٥٠ متراً وسط بسيط ضيق قد

طوقته جبال جرداء ومن تنورين للفرق يمكن الوصول في ٤.٥ ساعة إلى العافورة، ومنها أيضاً في ٤ ساعة إلى حدث الجبة).

إلى طريق الأرز عودة في الكم ١٩ كفر صارون، ومن هذه طريق يأخذ إلى كفر عقا التي كان فيها في عهد الصليبيين عودة حصن لم يبق منه إلا خطوط، وفي الكم ٢١ كسبا، قرية كبيرة، سكانها ١٢٠٠ أكثرهم روم أرثوذكس، علوها ٥٠٠ متر، في سفح جبل شاهق، مشرف على الحمراء وهي غابة زيتون كبيرة وتظهر منها طرابلس وكسبا.

وفي أعلى القرية كروم كثيرة تنتهي قرب (قصر الناووس)، وهو بناء أثري ضخم، لازالت بعض جدرانه وعتباته قائمة، يعد بين المباني الأثرية الثاني بعد مباني بعلبك من جهة ضخامة الأحجار ودقة النقش. وهو قائم على أكمة عالية، وفيها بقايا هيكلين كبيرين، وجدوا فيها تمثالاً لبعل. مبنية على منحدراته، وهي مركز تجاري تتمون فيها كل قرى الجرود، وحولها غابات ممتدة من الزيتون يحصل منه زيت فاخر، وينسج فيها عدول من شعر المعزى، وعلى مقربة ١ كم منها، أكمة وسط الزيتون عليها كنيسة أثرية باسم دير بربارا يحتوي على صور ملونة بيزنطية وكتابات يونانية حال الطلاء دون قراءتها وعند الخروج من كسبا يشرع الطريق بالتسلق ويلج مضيق وادي قاديشا مطلاً عليه من علو غير يسير.

إن وادي قاديشا ينفذ في هذه الجبال في طول قدره ٢٠ كم، ويؤلف في مبتدأه شكلاً يشبه السطح المائل النصف دائري، وثمة عند هذا المبتدأ بقايا صخور مركومة مما جرفته الثلاجات في العصور الجيولوجية، في وسطها مغارة عظيمة سيأتي وصفها يتفجر منها نهر قاديشا ثم يكون الوادي هاوية سحيقة عظيمة تكتنفها جدران عمودية تعلو أكثر من ٢٠٠ متر، في قعرها يسيل النهر.

إن الشعب الذي يسكن هذا الوادي استقر فيه في منتصف القرن السابع وهو من نصارى بلاد الشام الذين لجأتهم انشقاق القائلين بطبيعة واحدة في المسيح إلى الابتعاد والتجمع بشكل طائفة وهؤلاء التفوا حول راهب تقي اسمه مارون ـ ومنه نشأ اسمهم الموارنة ـ واستقروا في عدد من القرى في وادي نهر العاصي في أديرة غنية وقاتلوا بشدة شيعة الانشقاق المذكور ولاسيما اليعاقبة. فنالهم من أعدائهم كثير من

العنت، ليحولوهم عن معتقدهم وليكسروا من شوكتهم، فاضطر الموارنة أخيراً إلى أن يفكروا في الجلاء عن أراضيهم والهجرة إلى أماكن حصينة يعيشون فيها أحراراً بعيدين عن الاضطهادات، فانتقوا بقاع لبنان العالية وخاصة وادي قاديشا. وكان ثمة نساك ظلوا خلال عدة قرون يلجأون إلى كهوف لا تعد ولا تحصى منقورة في الجبال في مواضع جد عالية تشبه أوكار النسور، ويعيشون فيها عيشة عزلة وزهد خالصة، ثم صاروا بعد حين يجتمعون ويقطنون في عدة أديرة اخصها دير قبوتين الذي فيه أخرجة البطاركة، وبعد أن لجأ الشعب الماروني الصغير إلى هذه البقاع العالية الحصينة تمردوا خلال القرون المتتابعة وقاوموا اضطهادات السلاطين المماليك والعثمانيين رغم الحملات والمذابح العديدة.

لذلك كان الشعب اللبناني ينظر إلى هذا الوادي نظرة تقديس (قاديشا بمعنى مقدس) وبعده.

أصل الموارنة

كان الموارنة في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي زمراً آرامية تقيم على مقربة من أفاميا في جهات دير مار مارون وقد اتخذوا اسمهم من القديس مارون ومن ثم انتشروا في وادي العاصي ولاسيما في المعرة وشيرز وحماه وحمص وربما كانوا أيضاً في أنحاء منبج وقنسرين وانطاكية، وذلك بسبب نشأة القديس مارون في بلدة قورس. ولما زادت عليهم اضطهادات مجاوريهم ولاسيما اليعاقبة، أعداؤهم هاجروا إلى شمالي لبنان، لأن اليعاقبة كانوا يتتبعونهم وبلغ عدد رهبانهم ٦٣٠٠، وقد حدثت هجرة الموارنة تباعاً، توطنوا أولاً جهاته الشمالية ثم تقدموا إلى أواسطه ثم إلى جونيه ـ وقد كانت مشارف جبل لبنان والأنحاء المعروفة بالجرد قليلة السكان كثيرة الغابات. أما "الوسط" فقد كانت مأهولة لعدد أقل مما في السواحل فالموارنة سكنوا أعالي لبنان لخلوه من السكان، واحتلوا أولاً أودية الجبة أي مقاطعات إهدن وبشري والحدث وبعض بلاد البترون . ولما كثر عددهم في القرن الثامن والتاسع والعاشر امتدوا شيئاً فشيئاً إلى الجنوب واحتلوا بلاد جبيل. واختلط بهم قوم

من الآباق والطرواد الذين لاذوا بحمى المردة والجراجمة الباقية في لبنان فضلاً عما كان ثمة من السكان الاصليين، فصار كل هذا أمة كبيرة واحدة في زيها وهيئتها.

ومن الثابت أن كسروان كان آهلاً قبل القرن ١٥ بالنصيرية فغزاهم نواب الشام في عهد السلطان الأشرف خليل والناصر محمد حتى اخرجوهم وخربوا ديارهم فاستفاد الموارنة من ذلك واحتلوها حتى صارت مقاطعة كسروان في القرن ١٧ لهم كلها.

وعلى العدوة اليمنى (الشمالية) من الوادي يلحظ عن بعد قرية (راس كيفا)، وفي أسفل هذه القرية، وعلى شنخاب رفيع من المنحدر المطل على جسر قاديشا يرى كنيسة غريبة جداً اسمها (مار الياس) بعضها داخل كهف طبيعي وبعضها منقور في الصخر، وبعضها مبني بالحجارة، وفيها صور ملونة بيزنطية وكتابات سريانية وهي مبنية مكان عمارة رومانية.

ثم يستمر الطريق في الصعائد والمنعرجات ويلحظ على العدوة اليمنى منظر عجيب جداً من الصخور الطباشيرية الكرتاشة والنواة الجوراسية وفي وسط هذا الحلزون الفسيح يوجد دير للروم الأرثوذكس اسمه حاطورا حوله كثير من الكهوف العظيمة وكنيسة هذا الدير قد اقحمت وسط أحد هذه الكهوف. في الكم ٢٤ المغارة - ضيعة - في شمالها ووسط هاوية صخرية كثير من الكهوف العجيبة أحدها مماثل نفقاً واسعاً.

في الكم ٢٨ يطل الطريق على طرزا، قرية مارونية، سكانها ٤٨٠، مبنية على جانب منحدر الوادي على علو ٦٠٠ متر وفيها كروم عنب كثيرة، وآثار قناة أثرية كانت تروي سهل الكورة، وفيها مقبرة صخرية ومن طرزا يمكن الوصول في شعب كؤود جداً وبعد مسيرة ساعة على الأقدام أثر دليل إلى (دير قنوبين) ويمكن أيضاً بعد الانفصال من الجبل المطل على دير قنوبين وبعد الاتجاه نحو الشمال الشرقي، أن يصل بعد مسير نحو ساعتين على الأقدام في شعب كؤود مثل الأولى - إلى دير القديس انطونيوس في قزحيا.

في الكم ٣٠ عين السنديانة فيها مخفر درك في أعلى الطريق يلحظ في علو شاهق جداً كهف منقور في الصخر وحوله عمارة، وكان هذا الكهف مأوى الزهاد ثم صار ديراً ثم ملتقى اللصوص.

في الكم ٣٤ بيت مندر ـ ضيعة محاطة بأشجار الصنوبر علوها ١٢٥٠ متراً، ثم تكثر المنعرجات السريعة ويزداد الصعود والدوران.

في الكم ٤٠ حدث الجبة ـ قرية مارونية جميلة، علوها ١٤٥٠، سكانها ٨٠٠ موارنة، حسنة الهواء وجافة جداً، لذا تعد من أنفع مراكز الاصطياف، للمصطافين وطالبي الهواء الجاف، ولها مناظر غاية في الامتداد والروعة نحو وادي قاديشا وسهل الكورة والبحر المتوسط، والقرى العديدة المبعثرة في الآكام والسفوح المتدحرجة تحت أقدامها، كما أنها ترى وراءها قرية حصرون عن كثب وقرية بشرّي عن بعد كما تلحظ غابة الأرز على شكل شامة سوداء في وجنة بيضاء ومن فوقها قمة (قرنة السوداء).

من الحدث إلى تنورين ـ ماراً بغابة الأرز الخاصة بالحدث، ٤ ساعات على الدابة، بعد مسير ساعة يصل إلى تل صغير عليه حرجة ثم يهبط وادياً داثرياً باسم وادي حريصا يخرج منه أحد روافد نهر الجوز ومنحدرات هذا الوادي في عدوته اليمنى قد اكتست بغابة حقيقية من شجر الأرز وهي ملك البطريرك الماروني وأشجار هذه الغابة وإن كانت أقل حسناً من غابة بشرّي لكنها أكثر عدداً، وإذ كانوا يستغلونها استغلالاً حراجياً فيقطعون أغصانها الرئيسية، اختلفت أشكالها وصارت كالشمعدانات، وفي فصل الربيع ينتشر مع نسغ هذه الأشجار أريج جد عطر وذكي، وفي ظلالها وتحت أقدامها تنبت وتنمو كثير من النباتات والزهور الجميلة بحقل رائيها يتخيل غابات لبنان قديماً حينما كانت تغطي منحدراته وسفوحه.

ويسير في الوادي نحو ساعة و ٤٥ دقيقة ويجتاز أكمة كلسية جرداء فيصل إلى مفرق حجازين أحدهما يأخذ إلى دير حوب الماروني فتنورين التحتى والثاني يأخذ إلى وادي تنور فتنورين الفوقى وقد تقدم ذكرهما والقرى التي يشار إليها معهما.

عودة، في الكم ٤١ بعد الخروج من الحدث وهبوط منفرجين يمر الطريق من فوق مقبرة صخرية صغيرة اسمها (مقرونا) عجيبة جداً، فيها كهوف منقورة في صخر ذي الألوان العديدة التي تبدأ من الأبيض الناصع إلى الأسمر البنفسجي.

في الكم ٤٢ حارة بيت رعد في الكم ٤٤ الديمان العلو ١٣٥٠ متر، وهو المقر الصيفي لبطريرك الموارنة.

وحولها ضيعة يقطنها مزارعو دار البطريركية.

من الديمان شعب جبلي شديد الكؤودة والانحدار يهبط بعد ساعة ونصف نحو قعر وادي قاديشا ويعبر النهر فوق جسر يستحق التصوير في قربه طاحون، فإذا صار في العدوة الثانية يتسلق شعبا عمودياً كؤوداً فيصل بعد ٣٠ دقيقة إلى دير قنوبين.

إن هذا الدير، وقد اشتق اسمه من كلمة يونانية معناها الدير، هو أعظم معابد هذا الوادي وأقدمها، شيده فيما قيل تئودور الكبير (٣٧٩ ـ ٣٩٥)م وهو منذ القرن ١٥م مقر بطاركة الموارنة، وقبور هؤلاء وعددهم ١٨ ـ موجودة في كايللا مبنية على بعد ١٥٠ متراً إلى الغرب وأمام مدخل المغارة المقدسة التي قضت القديسة مارينا أواخر حياتها فيها. وتجاليدهم موضوعة في توابيت قد أقيمت منتصبة على طول جدران الكهف المقبري، وأغطية أكثر هذه التوابيت من الزجاج، وجفاف هذا المكان قد حفظ إلى درجة هذه التجاليد.

والكنيسة الديرية، المبنية داخل مغارة طبيعية، قد كرست باسم العذراء، وفيها قد حفظ جثمان أحد الرهبان القدماء، وتزعم الروايات أنه البطريرك تيان المتوفى منذ مئة عام، والجثمان الذي ألبس لباسه الكهنوتي لايزال سالماً. وهذه الكنيسة مزينة بصور ملونة لا يمكن معرفة تاريخها، وهي مشتقة من الكتابات الكنسية البيزنطية وربما كانت من القرن ١٥م أو ١٦م، والحينة تحمل رسم إلهة مبهمة نوعاً ما. مع صورة كبيرة للمسيح وثمة كتابات سريانية ولاتينية، وفي وسط الجدار الشمالي صورة كبيرة للعذراء وتحت أقدامها صور بطاركة الموارنة بألبستهم الكهنوتية.

من دير قنوبين يمكن اللحاق بالطريق القادم من طرابلس إلى الأرز والمار بإهدن، هذا إذا تسلق مباشرة المنحدر الذي تحت ضيعة اسمها بلوزا.

عودة في الكم ٤٨ حصرون. قرية مارونية كبيرة حسنة ذات فنادق عديدة ودور عصرية جميلة علوها ١٢٥٠ متراً سكانها ١٤٦٠، منحدر قاديشا العمودي تطل على وادي قاديشا، وتقف على شفا منحدره العمودي الرهيب مركز اصطياف ذو شأن، ذات هواء جيد ومكان خضر نضر.

في الكم ٥٠ بزعون، قرية مارونية، سكانها ٥٥٠، مركز اصطياف، في علو حصرون ذات مناظر خلابة، تحتها المنحدر الصخري العمودي والشلال الكبير.

ثم يمر الطريق من فوق دير ماريشا البشع وهذا الدير مبني فوق صخرة محاطة بالخضرة في مكان نزه، تاريخه سنة ١٨٦٠ ويمكن الوصول إلى هذا الدير في شعب يهبط نحو قعر الوادي ويعبر النهر فوق جسر قرب طاحون والدير مبني وسط منحدر عظيم في سفح المنحدر الذي تحت قرية بشري، ويكنى بأبي أديرة قاديشا، لم يبق فيه سوى راهب ماروني واحد.

في الكم ٥١ بقرقاشا، قرية صغيرة[1]، ثم يمر الطريق تحت قرية قديمة اسمها بقفرا دورها ماتزال على الطراز الجبلي البدائي، وهي أعلى قرى وادي قاديشا (١٥٠٠ متر).

في الكم ٥٣ يعبر الطريق نهر قاديشا من فوق جسر، وفوق هذا الجسر بقليل درب يؤدي إلى دير مار سركيس المنقور أكثره في الصخر، وهذا الدير يحضن الآباء الايطاليين الكريمليين وهو قائم على صخر عظيم وهو لذلك يدعى دير ايشر ومن حواليه الأشجار الممتدة الظليلة، ليس فيه سوى راهب واحد.

في الكم ٥٥ بشرّي. بلدة مارونية ذات شأن ومركز اصطياف مرغوب علوها ١٤٠٠ متر سكانها ٣٥٠٠ مبنية فوق تلعة مغشية بكروم العنب والتوت وغيرها، وهي مركز ناحية ومحكمة صلح ومخفر درك وفيها فنادق عديدة جميلة ودور عصرية وحوانيت ومقاهٍ، وهواء وماء جيدان، وفيها أربع كنائس، أكبرها في الوسط، ومدرسة للإيطاليين ولبعض أسرها عراقة ووجاهة، وفي أهلها قسوة في عهد الصليبيين كان اسم بشري وكانت إحدى اقطاعات كونتية طرابلس. وفي قرب

---

[1] سكانها ٢٧١ نسمة.

بشري مكان توليد الكهرباء من شلال يهوي بشدة من المغارة التي ينبع منها نهر قاديشا وهذا الكهرباء ينير قرى هذه الجبال كلها ومدينة طرابلس.

ومن بشري يصعد الطريق صعوداً رهيباً وتتعرج كثيراً، وفي خلال هذه الصعائد يطل على السيل النابع من قاديشا، ويحاذي القناة التي تؤدي بالماء إلى شلال معمل الكهرباء، ويشرف من علو شاهق على مضيق قاديشا السحيق حيث المنظر غاية في الروعة والجلال.

في الكم ٦١ يصل بعد آخر صعدة إلى بسيط منحصر بين شفا الوادي وقمم ظهر القضيب، في منتهاه غابة الأرز ذات اللون القاتم وفي جانبها على نشز فندق الأرز، كما أن في شفا الوادي فندق آخر حديث.

في الكم ٦٣ غابة الأرز هذه الغابات المحترمات هي إحدى بقايا الغابات العظيمة التي كانت تغطي لبنان في العصور القديمة وقد نوهت التوراة في عدة مواضيع بهذه الغابات وذكر أن النبي سليمان بن داود استعمل أخشابها في بناء هيكل بيت المقدس، ولا ريب في أن هذه الأخشاب نقلت وقتئذ من ميناء طرابلس بحراً إلى سواحل فلسطين، وقد استعمل أهل صور وصيدا أيضاً هذه الغابات في تلك العصور في صنع التماثيل وبناء الدور وصوارى السفن.

إن أرز لبنان واسمه اللاتيني قريب من أرز آخر اسمه أرز يؤدورا - وأصل هذا من جبال هيمالايا ويوجد منه في بلاد التيبت، ومن أرز ثالث اسمه أرز الأطلس جبال طوروس وآمانوس، وساق أرز لبنان باسق مستقيم في الغالب ويمكن ان يبسق حتى ٣٠ متراً، وأن يبلغ محيط دائرته من الضخامة نحو ١٣ - ١٤ متراً وتؤلف فروعه الغليظة طبقات غير قياسية، وينمو على هذه الجذوع أغصان عديدة تمتد امتدادا طويلاً وتنبسط على هيئة المراوح وخشب الأرز قاس، صقيل، ضارب للحمرة، وله طعم مر ينفر الحشرات، ومن هذه المرارة نشأ خلوده.

وما برح لبنان يحتفظ بغابات صغيرة من هذه الشجرة الجليلة القدر مبعثرة في أماكن مختلفة، كما في جوار قريتي إهدن وحدث الجبة، وعلى جبل الباروك حيث يدعى الأبهل، إلا أن أشجار غابة بشري هي دون منازع الأجمل والأعرق في القدم والإجلال.

هذه الغابة الجبارة قد نبتت في سفح جبل المكمل على علو ١٩٢١ متراً فوق صهوة صغيرة بارزة وسط خضرة المورن وهذا المورن يدل على المكان الذي وقفت فيه آخر الثلاجات التي كانت في لبنان في عصر كانت فيه الأمطار والثلوج أغزر وأشد من العصر الحاضر وعدد هذه الأشجار نحو ٤٠٠ وليست كلها من عمر واحد فاصغرها تبلغ من العمر نحو ٢٠٠ سنة وغيرها نحو ٤٠٠، ٨٠٠، ١٠٠٠، وقليل منها طاعن في السن إلى أكثر من ذلك ويقال إن هذه الأشجار الطاعنة في السن كانت قبل ثلاثة قرون أكثر عدداً من الآن. ففي سنة ١٥٥٠ ذكروا أن عددها ١٥ وفي سنة ١٦٦٠ كانت ٢٢ وفي سنة ١٦٩٦ لم يحصوا سوى ١٦، وفي يومنا لا يزيد عددها عن ١٢، ويقول العلماء أن عمرها يبلغ نحو ١٥٠٠ سنة وهي توجد فوق تلتين، في الأولى خمسة وفي الثانية سبعة وأضخمها يبلغ علوها ٢٢ متراً ومحيطها في قاعدة الساق ١٢ متراً.

وقد نقش كثير من الزائرين أسماءهم على قشور هذه الأشجار، وثمة على إحدى الاشجار الجبارة نقش اسم الشاعر الإفرنسي الشهير لامارتين وابنته جوليا وراهب اسمه جرامب، وتحت هذه الأسماء رخامة نقش عليها بالإفرنسية ما تعريبه باختصار أن اتحاد الشبيبة البشراوية يهدي هذه الرخامة تذكاراً لمرور الشاعر الإفرنسي الكبير لامارتين وابنته بأرز لبنان في عام ١٨٣٢ في حين أنه من الثابت أن لامارتين وابنته لم يصلا إلى الأرز، وإنما الذي وصل ونقش اسمه بها هو الراهب جرامب وحده.

ويسبغ الموارنة على هذه الأشجار نوعاً من التقديس ويسمونها بأرز الرب، وهي تحت حماية بطاركتهم، فقد بنى أحدهم في سنة ١٨٤٣ وسط الغابة كنيسة صغيرة، وضعوا تحت طائلة الحرمان القطع أو التجاوز عليها، وفي كل سنة في شهر آب يحتفل الأهلون بعيد كبير في حضور البطريرك. وقد عد اللبنانيون شجرة الأرز رمزهم الوطني ووضعوا رسمها وسط علمهم المثلث الألوان. (مساء ٩ ـ ١٠/١/١٩٣٩).

الصعود إلى قمة قرنة السوداء الـ ٣٠٨٨ متراً، هي أعلى قمم لبنان بل قمم بلاد الشام كلها، تحتاج لأربع ساعات، رحلة يسيرة، يفضل السفر صباحاً حيث تهب الريح الشمالية، وذلك كي لا يزعج السائر بالغيوم وكي يتمتع جداً بالمناظر. هذا

بعد أن يستوثق من أن الدليل يعرف الطريق جيداً، ويأخذ معه خريطة وبوصلة وذلك لاستخدامها في حالة الإحاطة بالضباب. وإذا لم يكن مجهزاً، بالثياب والأشياء المناسبة لمثل هذه الرحلة الجبلية، يفضل أن يستجلب من بشري بغلاً قوياً قادراً على اجتياز هذه الرحلة، وذلك لكي لا يضطر للتبلل بأكوام الثلج التي تفترش المنحدرات العليا وتبقى متجلدة حتى شهر آب ولابد من النهوض والحركة باكراً جداً.

يغادر فندق الأرز ويتجه نحو الشمال الشرقي فبعد ٤٠ دقيقة يصل إلى عين الجورة، وهي ساحة مدورة صغيرة من آثار الثلاجات القديمة ينبس منها خيط رفيع من الماء يشرب منه رعاة الغنم البشراويين في فصل الصيف، ومن هنا ينبغي أخذ المؤنة الكافية من الماء، إذ لا يوجد بعده ماء جار قط. ومن عين الجورة هذه يبتدىء الصعود الحقيقي. فخلال ساعة ونصف يصعد في اتجاه الشمال الشرقي وفي منحدر كؤود ملآن بكسور الأحجار الكلسية وفتاتها التي تتدحرج تحت الأرجل فتزيد مشقة الصعود. ثم يصل إلى مصطبة صغيرة ينفرج بعدها شق أو وادٍ يسير فيه نحو الشمال الشرقي مسافة ٧ كم (نحو ساعة وربع) والمحور المتوسط لجبل لبنان الشمالي يؤلف أخدوداً طويلاً قعره على علو معدله نحو ٢٨٠٠ متر وخط التلفريك (المصعد الهوائي) ليس مستمراً، فهو يتقطع من مكان إلى آخر بآكام ومهاد وقعران تتراكم فيها الثلوج، وتتجمد خلال الموسم كله. والماء الذي يحصل من ذوبان هذه الثلوج ببطء لا يسيل على وجه الأرض بل ينفذ بين طبقات الكلس السنوماني.

ويغور ليرفد مجاري الماء في أحشاء الأرض وإن وجود هذا الإخدود المتوسط الذي تحده من الغرب والشرق قمم مشرفة عليه عن قرب ٣٠٠ متر لا تمكن الزائر من التمتع في وقت واحد بمناظر الساحل والداخل (البقاع).

وأول ما يصعد الزائر في الغرب (بعد مغادرة الأرز بأربع ساعات) إلى قرنة السوداء (علوها ٣٠٨٨ متراً) وهي أعلى قمم لبنان طراً، وفي ذروتها إشارة جؤد زيكية (طبغرافية) سوداء ويميز الناظر منها نحو الجنوب الغربي المنحدرات الكلسية السمراء لرأس الشقعة ويتجه نحو الغرب سهل زغرتا المغطى بالزيتون والمحروس من ريح البحر بجبل تربل القريب من الساحل، وثمة أيضاً مدينة طرابلس

المكتظة بالدور حول قلعتها، ومن بعدها الرأس المثلث الذي في منتهاه ميناء طرابلس وإذا كان الجو رائقاً فوق البحر المتوسط تنكشف أيضاً وسط هذا البحر الفسيح وعلى بعد ٢٥٠ كم عن الساحل جبال ترودوس (علوها ١٩٥٠ متراً) أعلى سلسلة جزيرة قبرص وهذه الجبال هي التكملة الجيولوجية لجبال اللكام الممتدة حول انطاكية وينبسط في الشمال والشمال الغربي سهل عكار الخضر النضر المؤلف من دلتا النهر الكبير، وبعده سلسلة جبال النصيرية المكللة قممها بقلاع العصور المتوسطة.

وإذا أراد الزائر أن يكتشف سهل البقاع ينبغي عليه أن يتقدم نحو الشرق ويهبط الأخدود المتوسط ويعود للصعود خلال ٤٥ ق إلى قمة أوطأ بقليل من القرنة السوداء، تشرف على هذه البقاع التي كانت في الأصل قعر بحيرة ويلحظ في الشرق قرية رأس بعلبك ومن بعدها المنحدرات الجرداء الشهباء لسلسلة لبنان الشرقي وفي الجنوب اللطخة الخضراء التي تحدثها غيطان بعلبك وبساتينها، ومن بعدها جبل الشيخ المكلل بالثلج.

أما الرجوع من قرنة السوداء فيمكن أن يؤتى من الطريق نفسها، أو الأفضل، فيما إذا كان الدليل يعرف المجازات أن يهبط خلال ست ساعات من المضيق الرهيب المسمى بضم الميزاب إلى قرية سير (تقدم ذكرها) أو يهبط إلى قرية إهدن ماراً بغابة الأرز المجاورة لها.

الرجوع: هذا ويمكن الرجوع من الأرز إلى بشري من نفس الطريق التي تقدم وصفها، أو من مجاز قدم تسلكه الدواب اسمه عين النبع يمر من تحت مارصربا.

من بشرّي إلى إهدن. يمكن الوصول من بشري إلى إهدن مباشرة خلال ساعتين من مجاز قديم تسلكه الدواب يمر من تحت دير مار سركيس وبعد هذا الدير بقليل وفوق المجاز عين نضاحة ينبجس منها ماء غزير وبارد.

(ومن بشري مجاز آخر يهبط إلى وادي قاديشا ويوصل إلى دير قديم اسمه ماريشا، ثم بعد هذا الدير يجتاز غابة جميلة من شجر العفص وبمسيل ينحدر من دير حامت وثمة قنطرة من الصخر الاشهب قد علت من ارتفاع مئة متر فوق هذا الشق العظيم المسمى بهوة نهر الرب، ثم يمر من أسفل كنيسة صخرية باسم القديسة

شمونة لها ثلاث حنايا أحدها فجوة في الصخر ثم يجتاز شعباً ضيقاً في ذروة منحدر سحيق مرعب يغور في الشمال في وادي عين القنطرة، وهو واد يستحق التصوير وموحش، إلى أن يبلغ إلى كنائس منقورة في الصخر باسم مار بهنا ومار سركيس وهي إزاء ديرالصليب).

عودة: في الكم ٧٣ يجتاز الطريق وادياً صغيراً في أعلاه يرى كنيسة باسم مار تدروس مبنية فوق حاجز صخري ففي سفح هذا الحاضر مغارة فيها معبد عجيب باسم سيدة الدر تفد إليه من أماكن بعيدة النساء اللواتي يشكين قلة الدر.

في الكم ٧٥ حوشيت ضيعة مارونية فقيرة علوها ١٣٢٠ متراً وسكانها ٩٠٠ مبنية فوق شنخاب صخري غريب الشكل جداً، فوق وادي قاديشا، وفيها طاحون قديم ذو قناة ماء. (١٠ـ ١٩٣٩/١/١١).

وتحت حدشيت هوة سحيقة في سندها مغارة اسمها (دير الصليب) فيها كنيسة مزدوجة، في حناياها صور ملونة بيزنطية لسبعة قديسين، وتحت هذه المغارة بمسافة وفي قعر الوادي كنيسة ضخمة أخرى عجيبة باسم مار انطون البداوي، ومغارة أكلة السيد ومغاور مار سلوان ومار شليتا ومار جريوس ومغارة مار يوحنا، ولا يزال في هذه المغاور سهمان منقطعان، الأخيرة أعجب وهي منقورة وسط جدار صخري عمودي شاهق وفيها صور ملونة بيزنطية أيضاً، وكل هذه المغاور والبيع من العصور المتوسطة.

في الكم ٧٨ بلوزا ـ قرية مبنية على قمة منحدر يفصل وادي قاديشا الأصلي عن وادي إهدن الذي يرفده وفي الكم ٨٢ بان ـ وهنا مجاز شديد الكئودة والوعورة يهبط في ساعة ونصف إلى قعر الوادي الذي ذكرنا أنه مضيق موحش بعضه مزروع. وكنيسة هذا الدير منقورة في الصخر. وثمة مغارة طبيعية يتخذونها سجنا للمجانين الذين يكبلونهم بالأغلال ويسجنونهم ريثما يشفيهم القديس قزحيا.

في الكم ٨٣.٥ فرع من الطريق صالح للسيارات يوصل إلى قرية كفر صغاب، وهي مارونية سكانها ٩٠٠ في مكان خضر، علوها ٣٠٠ مترٍ، ثم يوصل إلى قرية عنطورين، ثم إلى طريق إهدن ـ طرابلس.

في الكم ٨٥ إهدن، بليدة حسنة، يقال أنه ليس في لبنان أعذب ماء وأطيب هواء وأجمل منظراً، علوها ١٤٥٠ متراً، مركز اصطياف مشهور، في مكان معجب ووسط مناظر رائعة. وهي في الصيف قاعدة ناحية ومسكن أهل زغرتا الذين يملكون كل مزارعها. أما في الشتاء والربيع فخاوية لا يبقى فيها سوى نحو عشرين أسرة لحراسة الدور ورفع الثلوج عن السطوح، وفيها محكمة ابتدائية ومخفر درك، وفنادق عصرية كبيرة ودار برق وبريد وفيها كنيسة كبيرة متسعة الجوانب تحتوي على جثمان يوسف كرم الذي يعده اللبنانيون بطلهم، والجثمان محنط منذ نصف قرن ومعروض في تابوته للأنظار تحت غطاء من الزجاج. وتحت الكنيسة المذكورة كنيسة قديمة خراب باسم القديس جاورجيوس وهي من العصور المتوسطة، فيها صور ملونة وكتابة بالسطر النجيلي، وفي الشمال الغربي من إهدن فوق أكمة كنيسة قديمة صغيرة باسم سيدة الحصن، كان أصلها برج مراقبة في عهد الرومان.

ومن اهدن طريق يوصل إلى غابة الأرز الجميلة في وادي فيران ومن هذه يمكن الصعود إلى القرنة السوداء عن طريق عين بتللاية وعين افقا وعين خالدية ومزرعة سويكطة ووادي العصافير وعين العصافير وخربة قلعة عيشة، لكن هذه الطريق شديدة الكثودة والوعورة.

في الكم ٨٩ فرع من الطريق يوصل بعد ١ كم إلى ضيعة مارونية اسمها إصبع في جوارها غابة صنوبر بنفس الاسم، هي إحدى الغابات الجميلة المحفوظة في هذه الربوع.

ثم يشرع الطريق بالهبوط تدريجياً في منعرجات يزداد قصرها وخطرها كلما انحدرت، إلى أن يبلغ في الكم ٨٢ قرية ايطو، مركز اصطياف صغير علوها ١١٠٠م مبنية على أسناد جبل كرم ايطو. وفي جنوبها على بعد ١٠ ق دير مار سمعان وفيه راهبات من الطائفة المارونية - في الكم ٨٥ كرم سعدة - في الكم ٩٦ قرية سبعل المشهورة بنبيذها - في قربها على أكمة دير مار يعقوب، مصيف مطران طرابلس الماروني - في الكم ٩٩ كفرفو، وهنا ينتهي الجبل ويبدأ السهل المغروس

بالزيتون. في الكم ١٠٣ عرجس. في الكم ١٠٧ دير الجديدة للرهبان المارونيين. في الكم ١١٠ الخالدية، وهنا فرع طوله ٦ كم إلى مزاريا.

في طريق مزرايا المذكورة، وفي الكم ٢ منه قرية ايعال، وفيها قصر محصن غريب بناه حول سنة ١٨١٠م حاكم طرابلس مصطفى آغا بربر، وهو فوق قلعة تشرف على القرية ويتصل بالنظر مع قلعة طرابلس.

وهذا القصر بناء ضخم طوله نحو ٥٠ متراً، له طبقتان مع باحة واسعة مكشوفة وفي داخل سوره مسجد صغير، في داخله ضريح الآغا المذكور.

عودة: في الكم ١١٢ كفر خلدا. في الكم ١١٤ زغرتا، قرية مارونية كبيرة، سكانها ٥٠٠٠ قاعدة مديرية، وفيها محكمة بدائية ودرك ودائرة برق وبريد ومدرسة راهبات وهي مبنية على حد سهل الزامية وتشرف على نهر رشعين الذي يجتازه الطريق بعد الخروج من زغرتا.

في الكم ١١٨ مجدليا، وههنا الطريق نجده فسيحاً مترامي الأطراف ملآناً بأشجار الزيتون إلى أن يصل إلى محلة القبة من أرياض طرابلس وإلى ساحة التل في طرابلس حيث الكم ١٢٤.

ضواحي طرابلس

هيكل سفيرة ـ ٢٩ كم في السير على طريق جبلية معبدة، ومنها ساعتان مشياً أو ركوباً إلى هيكل سفيرة.

يخرج من طرابلس من طرفها الشرقي المسمى بباب التبانة، ويصعد إلى حي القبة متسلقاً طريقاً معبدة كثيرة المتعرجات، فإذا بلغ الهضبة يترك على سمته وخرج وجاز باب الثكنة العسكرية يترك على يمينه الطريق الجنوبية الصاعدة نحو إهدن والأرز وينطلق نحو الشرق على طريق مستوية معبدة يعدو بين كروم الزيتون الجميلة الممتدة غرباً وجنوباً ويلحظ على يساره (جبل تربل) الشامخ بعظمته وأمامه قمم لبنان الشمالي ومنحدراته الرهيبة المكللة في كثير بالثلوج.

في الكم ٨ ـ قرية علمار في الكم ٨ قرية أرده، وهي مبنية وسط كروم الزيتون فوق أكمة مقابل قرية زغرتا وهذه تظهر دورها المسقوفة بالأجر الأحمر عن بعد، في الكم ١٣ مرياطة، قرية صغيرة إسلامية وسط كروم التوت والزيتون، فيها مقبرة حولها ـ أشجار سنديان ضخمة ـ في الكم ١٧ عشاش، تعلو ٢٥٠ متراً، دورها منتشرة بين خضم من الشجر الأخضر، وفي قرب الطريق دير للرهبان المارونيين.

ثم يجتاز الطريق نهيراً ثم يشرع بتسلق منحدرات الجبل، ثم يدخل في وادٍ يضيق شيئاً فشيئاً. في الكم ٢٠ كفر شلان، ضيعة مسلمة صغيرة ـ في الكم ٢٥ يشرف من بعد على قرية (حقل العزيمة).

في الكم ٢٦ يصل الطريق بغتة إلى منعرج شديد الالتواء، وإذا به أمام منظر غاية في الروعة، على يمينه منحدر عمودي يمعن في السمو، وعلى يساره منحدر عمودي آخر يمعن في العمق نحو وادٍ سحيق وعريض، انتشرت فيه الكروم والبساتين ذات الأشجار المثمرة المتنوعة، وازدهى بكثرة ينابيعه المتدفقة وشلالاته المتساقطة، وبما على وجهته اليمنى من الدور والقصور الحديثة التي بناها سراة طرابلس للاصطياف، وفي أسفل الوادي قرية ذات دور مبعثرة بين تلك الغياض والرياض اسمها (نجعون)، وفي أعلى الوادي قرية سير المقصودة ذات الاسطحة الحمراء، في الكم ٢٩، سير في سفح جبل الأربعين الشامخ بمنحدراته الهائلة،

وتشرف على علو تعلو ألف متر سكانها ٧٠٠، وفيها مركز ناحية الفينه ومخفر درك ودائرة برق وبريد. وهي قرية إسلامية ذات شأن، وموطن أسرة (رعد) الكبيرة زعيمة هذه الأنحاء ومصيف جميل يكثر فيه الأسر الطرابلسية. زاد إقبالهم عليها في السنين الأخيرة وفيها مسجد للمسلمين وكنيسة للموارنة وسوق صغيرة وفيها فندق حديث متقن ظل ظليل، وهواء منعش، كثير الرطوبة والضباب، وشلالات ومياه دافقة ومناظر رائعة، غاية في الامداد نحو البحر المتوسط وما يمخر فيه من السفن، ونحو سهل عكار الأفيح الزمردي، ونحو جبال عطار ولبنان الشامخة الظاهرة حول سير من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، وفي هذا الجنوب الأقصى (قرنة السوداء) أعلى قمم لبنان طراً (٣٠٨٥ متراً) وفي إحدى الآكام التي تعلو سير من الجنوب ضيعة حديثة (بقاع صفرين) اتخذت حديثاً مصيفاً.

زيارة هيكل سفيرة - يمكن الوصول إلى هذا الهيكل مشياً أو ركوباً في نحو ساعتين، فيسلك شعبا صخرياً شديد الانحدار والكئودة، ولا يزال يهبط فيه إلى أن يصل بعد ساعة إلى قعر وادي الطين أحد روافد نهر البارد فيعبره فوق جسر صغير، ثم يشرع بتسلق عقبة شديدة الانحدار والكئودة تمر من بين أشجار السنديان والملول والتوت الخضراء، إلى أن يصل بعد جهد إلى ضيعة (سفيرة) ذات الدور المنتشرة، بين تلك الأشجار، علوها ١١٠٠ متر، وفي شمالها بعد نحو ثلث ساعة يصل إلى هيكل سفيرة، وفي قربه غابة صغيرة جميلة من أشجار السنديان الأخضر، وحوله مناظر جميلة، وهو مبني فوق مرتفع.

لايزال هذا الهيكل سالماً في جملته. ولو بعثت (فرونتون) والكورنيش الذي كان يزين قسمه الأعلى لقلت أن بناءه قد تم من عهد قريب. إذ ليس فيه أي حجر متزحزح عن مكانه، وصهوات الزخارف ما برحت سالمة، حية، وواضحة كل الوضوح إلى حد يخيل إليك أنها خرجت من يد النحات أمس، قد ارتكز هذا الهيكل على مداميك أرضية تعلو نحو ٣ . ٤ أمتار، ليس فيها ولا في الواجهات أي أثر للأعمدة وشكل هذا الهيكل مستطيل يبلغ عرضه نحو نصف طوله. والأحجار التي بني بها غاية في الضخامة.

قيل إن أصل الأسرة من حوران، قدم جدهم رعد إلى طرابلس وانتمى إلى بني سيفا فولوه مقاطعة الفينة هو وخلفه أولاده إلى أواخر القرن الثاني عشر الهجري (تاريخ حيدر الشهابي، الطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣، ص ٩٥ رقم ١ عن الطبوغرافية التاريخية لرسو ص ٨٨ ان كورة الفينة الجبلية عرفت فيما يظهر دور إقبال في زمن الرومان، وربما كان ذلك بعد دخول بوميوس، وآية ذلك أطلال حصن سفيرة وجزدان نائوس وهي فوق كسبة ونقوش طرزا وتبيرزا. ومنحوتة نحتاً جميلاً، وليس ما بينها أي أثر للكلس والطين. والجدران العالية الجانبية تتقدم عدة أمتار على الواجهة وتؤلف (اليرونائوس) أي القسم البارز القدامى من الهيكل يوصل إليه بسلم قد انسد اليوم بانقاض الفرونتون بيد أن هذا الهيكل بسيط البناء، فيه بضع دعامات لا تبرز فوق الجدار سوى ٣ ـ ٤ سنتميترات، مزخرفة من الخارج، والواجهة تحتوي على ثلاثة أبواب أكبرها المتوسط وهو عالي يحيط به إطار من النقش البارز أما البابان الآخران فهما ضيقان وواطئان ومعدومًا الزخرف والذي في اليسار يوصل إلى سلم داخلي منحوت في حجارة الجدار، يصعد فيها إلى سطح الهيكل.

والسللا، طويلة نحو ١٤ ـ ١٥ متراً وذات قسمين، الثاني منهما أعلى من الأول بثلاثة أمتار. وفي الوسط درجات توصل إلى ذلك القسم العالي، بينما هناك في الجهة اليمنى باب صغير محاط باطار من الزخرف البارز، يوصلك في درج إلى المغارة الخاصة بدفن الموتى وطولها بقدر عرض الهيكل. وهناك في الواجهة الخارجية للجدار الجانبي الأيمن كتابة يونانية صعبة الحل، نقشت على حجر لا يختلف عن التي ذكرناها.

وفي جوانب هيكل سفيرة يلحظ وجود خرائب بنايتين اثريتين صغيرتين فالأولى في أسفل درج الهيكل، لم يبق منها سوى القسم الأعلى من الباب مع كتابة يونانية. والثانية التي مازال سورها ماثلاً، تحتوي على ثلاثة أعمدة دورية لا تزال قائمة أيضاً.

وفي قرب هيكل سفيرة أكمة حجرية تشرف عليه، يرى فيها أطلال عمارة أثرية صغيرة مربعة الشكل مبنية بأحجار المكان نفسه، وفي قربها شبه مذبح مبني بغلظة زائدة وإلى جانبه يصادف عمارة ثانية ذرع كل من جهاتها ستة أمتار تكاد تكون على نفس الشكل الذي للعمارة الأولى، وفي أساسها زخرف بارز.

ويمكن أن يصعد من سير ويبلغ خلال ست ساعات (قرنة السوداء) ومنها يهبط وادي قاديشا والأرز وسيأتي ذكر ذلك.

ويمكن أيضاً ان يغادر سير نحو الشرق فيصل بعد ٥ ـ ٦ ساعات إلى وادي نيسان وقرية اكروم في المنحدر الشرقي لسلسلة لبنان المتجهة نحو حمص وكل البقاع.

حصن عكار

٤٦.٥ كم طريق معبدة حتى عيات، ومنها ٢.٥ ساعة على الرواحل جولة مفيدة جداً يخرج من طرابلس في طريق حمص ـ في الكم ٣ قبة البداوي التي تقدم ذكرها في الكم ٩.٥ قرية المنية ذات الغياض والرياض والينابيع الغزيرة ـ في الكم ١٤.٥ أرض ارطوزة مكان اورتوزيا قديماً (سيكون ذكرها) في بحث طريق طرابلس ـ حمص ثم يعبر الطريق نهر البارد فوق جسر جديد، وقد هجر الجسر القديم الحجري، في اليمين خان خراب يلوح أنه من بناء العصور المتوسطة. في الكم ١٥ المعبدة ـ هنا يترك على اليسار طريق حمص أكمة ـ في الكم ٢٦.٥ نهر عرقا وعليه جسر حجري جميل، وفيه ترى العين منظراً جد جميل يستحق التصوير ولنهر عرقا قناة فرعية جانبية تجتاز الجسر المذكور فوق جسر ذي قنطرتين وتسيل نحو الحقول الخضراء الممتدة ومن ثم يصل إلى أمام تل كبير بعضه اصطناعي هو ليس إلا مدينة عرقا الأثرية.

(كان لعرقا شأن كبير منذ أقدم أزمنة الفينيقيين وقد جاء ذكرها في رقم تل العمارنة وفي نصوص الآشوريين وفي عهد الرومانيين كان اسمها آرتاسزارثا أو قيصرية لبنان وكانت مركز عبادة ذات شأن للآلهة ونوس أرشي تي ويس وكان فيها هيكل ثانٍ باسم عشتروت يوليادا، وقد ولد فيها إسكندر سفيروس، وبنى فيها قصراً، ولما زحفت الحملة الصليبية الأولى نحو بلاد الشام وبلغت هذه الربوع وجدت هنا مدينة محصنة وسط بقاع عامرة ذات مياه غزيرة وحولها جبال مكتسية بالحراج، وبالتلال المفروشة بأشجار الزيتون وسهول فسيحة مقسمة زخرت بزروع

ومروج مختلفة، وكانت مياه عرقا تأتيها من عكار بقناة لا يزال مجراها المنقور في الصخر بارزاً في بعض الأماكن وقد اتخذ تارة مجازة للمرور كما في الدبل وتارة أثر فني كما في القنطرة، حيث كان يمر على قنطرة معقودة من فوق أحد روافد نهر عرقا. وبعد أن استولى الفرسان الهيكليون على عرقا جاء الملك الظاهر بيبرس واستخلصها منهم سنة ١٢٦٦م.

ثم يلف الطريق حول التل عن يساره ويلحظ على منحدرات هذا التل وداخل الصير (جمع صيرة) المسورة بضع قطع من أعمدة الغرانيت الوردي اللون الشبيهة بأعمدة بعلبك كما يوجد فسيفساء طولها أكثر من عشرة أمتار مغطاة بطبقة من التراب ثخنها نحو ٠,٧٥ متر، وقد ظهر طرف منها من أحد شقوق الارض، وثمة غير ذلك كثير من الأحجار المنحوتة.

وإذا صعد إلى ذروة هذا التل يشرف على منظر غاية في الروعة والامتداد يشمل كل سهل عكار الذي تصل مزارعه الخضراء ومحارثه الحمراء حتى شاطىء البحر. وهذا السهل، تبلغ مساحته نحو ١٢٠٠٠هكتار وهو ذو تربة جد خصبة، ويكاد يكون أهراء لبنان الشمالي، وسط هذا السهل الممعن في الانبساط تلمح عدداً من التلال الاصطناعية الصغيرة، وأطلال قرية أثرية رومانية أو صليبية أو عربية.

في الكم ٧، حلبا وهي هلبة في عهد الصليبيين، مبنية مكان قلعة من العصور المتوسطة قد دثرت الآن بالكلية، وهي قرية سكانها ١١٤٨ نصفهم مسلمون ونصفهم روم أرثوذكس وهي قاعدة قضاء عكار، وإن لم تكن أكبر قراه وفيها محكمة بداية ومخفر درك ودائرة برق وبريد. وحلبا مبنية في سفح أكمة ودورها متراكبة، ويناوح أكمتها أكمة أخرى بينها وبين الأولى واد، وعلى الثانية قرية نصرانية اسمها (الشيخ محمد) سكانها ٤٥١. من حلبا إلى القبيات ـ ٢٤,٥ كم طريق غير جيد ـ إذا خرج من حلبا ينحرف نحو اليسار.

عرقا الحالية قرية صغيرة ليس فيها سوى طاحون وبيوت قليلة، بينما كانت في العصور الماضية، مدينة عامرة، قال الادريسي "لعرقا في وسطها حصن على تلة عالية ولها ربض كبير وهي عامرة بالخلق كثيرة التجارات وأهلها مياسير وشربهم من ماء يأتيهم في قناة مجابة من نهرها. ونهرها ملاصق لها وبها بساتين كثيرة وفواكه

وقصب سكر وبها مطاحن على نهرها وبينها وبين البحر ثلاثة أميال وبناؤها بالجص والتراب، وجونها ينسب إليها بينما صار ينسب الآن إلى عكار لكثرة ما ينتجه من الحبوب والذرة والسمسم والبصل.

قضاء عكار من أعمال لواء لبنان الشمالي: سكانه نحو ٣٠٠٠٠ نصفهم مسلمون والنصف الآخر نصارى وهواؤه جيد نشيط، وسهوله خصبة، وفيه أشجار وافرة معظمها من الزيتون، وفي جباله أعظم غابات الشام. وكانت قرية عكار العتيقة مقاماً لآل سيفا.

وفي هذا القضاء صناعة السجادات المنقوشة، اقتبسها سكانه من التركمان الذين حلوا فيه، وأشهر القرى بهذه الصناعة عيدمون والمفراقة والجديدة والنهرية والرماح، ثم هند قت وحجز.

في الكم ١,٥ نخلة. وهنا يتفرع الطريق إلى فرعين يلتقيا في قرية البيرة.

فالفرع الأول. شمالي. في الكم ٦,٥ ضيعة إسلامية فقيرة اسمها حواش، تعلو مئة متر، مبنية فوق قلعة صخرية في طرف سهل عكار، منظر جميل. في الكم ١٠,٥ تليل (تصغير تل) ضيعة نصرانية وسط بقعة متتلعة في طرف واد صغير زاو بزروعه وخضرته في الكم ١٤ الداوود في الكم ١٨ البيرة.

أما الفرع الثاني فجنوبي. في الكم ٢,٥ خربة الجندي. في الكم ٣ كوشار في الكم ٧ كفر حارة. في الكم ٧,٥ مزرعة بلدة. في الكم ٨ الحد. في الكم ٩,٥ دير حنين. في الكم ١٠,٥ البربارة. في الكم ١٢,٥ . الفساكين. في الكم ١٤,٥ خربة الداود. في الكم ١٥ البيرة، وهي قرية ذات شأن، سكانها ٧٠٠، وسط بقعة، جميلة المنظر، غزيرة المياه، فيها مسجد ظلل بدلبة عجيبة في ضخامتها وزهوها.

في شمالي البيرة وعلى بعد ٦ كم ضيعة مارونية فقيرة اسمها منجز مبنية قرب نهر الكبير، في واد سحيق محصور بين شاهقين، فيها دير كبير كان للآباء اليسوعيين ثم انتقل إلى الرهبان المارونيين، وهو من فوق منحدرات جميلة ملآنة بأشجار الحراج، وفي ملتقى نهر منجز بنهر الكبير أطلال حصن صليبي قديم كان اسمه في عهد الصليبيين (قلعة فليس) ونجد أسس جدران، وصهاريج وأخرجة

ومدارج، وكان هذا الحصن يتراسل بالنظر مع برج صافيتا وربما كذلك مع قلعة الحصن، وكان مكلفاً بحراسة معابر نهر الكبير.

في الكم ٢٤.٥ القبيات، قرية كبيرة، تعلو ٦٠٠ متر، مركز ناحية من أعمال قضاء عكار، سكانها ٢٢٢٧، كلهم موارنة، منقسمة إلى خمس حارات منفصلة، في سفح جبال مغطاة بالحراج، وفيها مدرسة إيطالية، ومستشفى إيطالي وكنيسة كبيرة، ومخفر درك، ومن قبيات يمكن الوصول على الدابة إلى حصن عكار).

وبعد القبيات يستمر الطريق فيصل بعد الكم ٤ إلى عندقت، قرية مارونية غنية ذات دور مكتظة، سكانها ٧٠٠، علوها ٧٠٠ متر، فيها مدرسة للراهبات ومعمل لحل الحرير ومقر سرية عسكرية لبنانية.

وعلى بعد ٧ كم إلى الشمال الغربي ضيعة فقيرة اسمها عيدمون، سكانها ٣٠٠ اشتهرت بالبسط العكارية التي ينسجها نساء هذه القرية في بيوتهن، فيغزلن الصوف ويصبغنه بايديهن وفيها نحو عشرين نولاً من الطراز القديم، وعرض هذه البسط (ليانات قياسات نحو ١.٣٠ متر أما الطول فمختلف حسب الطلب والرسوم قلما تختلف، وليس فيها اتساق على أن الصبغة إجمالاً لا بأس بها ومن الممكن تحسينها.

وعلى مقربة من عيدمون يمكن أن يزار بقايا هيكل روماني يدعى (مقام الرب) وهو من الفن الوحشي، ليس فيه سوى أنه ادى للاحتفاظ بصنعات محلية تعزى إلى نحاتي أحجار صالحين.

ومن عندقت يمكن الوصول بعد ٨ كم إلى طريق طرابلس ـ حمص عند الكم ٥٨، وعند جسر عريضة عودة بعد حلبا يتجه الطريق الذاهب إلى عكار نحو الجنوب الشرقي ففي الكم ٣٠.٥ يلمح على اليسار فوق مشخاب قرية الدبل، ويلف من حولها ـ في الكم ٣١.٥ وفوق قلعة على اليسار أطلال قناة رومانية (يتسلق خط أحجارها التلعة) كانت توصل ماء من عكار إلى عرقا.

ثم يشرع الطريق يتسلق منعرجات تصعد نحو أكمة خضراء تعد من أول اعضاء سلسلة جبال عكار.. في الكم ٣٣.٥ يشرف الآن من على قرية الدبل التي تلمح على اليسار هنا منظر غاية في الروعة نحو الجسر وجزيرة إرواد وجبال النصيرية.

في الكم ٣٤,٥ يهبط الوادي وفيه منظر جميل نحو جبل عكار وفي الجنوب نحو جبل الفنية وثمة في سفح عضد ثانٍ تظهر قرية جبرائيل في الكم ٣٧,٥ يعبر نهر عرقا فوق جسر ثم يجتاز قرية جبرائيل (قرية صغيرة أهلها روم ارثوذكس، عددهم ٥٣٦، دورها مبعثرة بين الرياض والمياه الدافقة.

وبعد جبرائيل تزداد وعوثة الطريق على السيارات وتصير مشرفة من على وادي نهر عرقا في الكم ٣٩,٥ يترك على اليمين فرعاً للطريق يتجه نحو الجنوب وفيه (في الكم ٣) قرية رحته.

في الكم ٤٠,٥ في امتداد الطريق على اليسار، أطلال أخرى للقناة الرومانية التي تقدم ذكرها، وفي اليمين تظهر قرية تكريت.

في الكم ٤٢,٥ بيت ملاط، قرية مارونية غنية، سكانها ٨٠٠، مبنية وسط الخضرة، علوها ٥٠٠ متر. في الكم ٤٣,٥ العيون وهنا يتفرع الطريق إلى فرعين، فالأيسر يتجه (٤٤,٥ كم) إلى بينو، قرية روم ارثوذكس، سكانها ١٠٠٠، مبنية وسط الخضرة والأشجار، وعند ملتقى واديين صغيرين يؤلفان نهر عرقا. فيها مخفر درك ومدرسة. أما الفرع الأيمن يجتاز (٤٥,٥ كم) ضيعة البرج فيها سراي قديمة في قربها مسجد وشجرة.

في الكم ٤٦,٥ عيات قرية إسلامية، سكانها ٤٠٠، ينتهي فيها طريق السيارات واكتظت حول دار محمد بك العثمان أحد أعيان هذه الأنحاء. ومن هذه الدار منظر ممتد رائع جداً.

وفي عيات يترك السيارات ويأخذ راحلة توصل إلى حصن عكار. والمجاز غير عسير، وإن كان متسلقاً، فيصل بعد ساعة إلى العضد الأخير المجاور لشواهق جبل عكار. ومن ثم يوصل إلى أكمة فيها منظر ممتد غاية في الروعة نحو البحر، يشمل سهل عكار الخصب الأخضر، وشبه الجزيرة التي تنتهي بميناء طرابلس، وجزيرة إرواد وجبال النصيرية مع صافيتا وقلعة الحصن ووادي نهر الكبير، ويشمل أيضاً في السطح المائل الآخر الشنخاب الذي قام فوقه حصن عكار، وهذا الشنخاب بين واديين ملتقيين يشرف عليه من على قمم جبل عكار المنشية بالحراج.

وهنا يهبط المجاز ويصير شاقاً كئوداً، ويجتاز واديين صغيرين كثيري الحراج، إلى أن يصل بعد ٢.٥ ساعة من عيات، إلى قدام حصن عكار.

يعلو حصن عكار ٧٠٠ متر، وهو مبني فوق شنخاب صخري ضيق جداً طوله نحو ١٥٠ متراً، وتخطيطه مائل ومتجه في الشمال والجنوب نحو الشرق والغرب. وقد انفصل عما حوله بمضيقين عميقين يجري فيهما غديران يلتقيان فيما بعد ويؤلفان نهر عكار عند قدم المنتهى الشمالي للشنخاب. وفي جنوبي الحصن خندق صناعي نقر في الصخر الصلد يفصله عن كتلة الجبل التي كانت تتصل بالشنخاب.

وثمة عند ملتقى الغديرين ساحة مظللة بأشجار الدلب يناسب ترك الخيل فيها، ومن ثم يتسلق مجازاً متعرجاً يصل بسهولة بعد عشر دقائق إلى ثغرة في المنتهى الشمالي يمكن الولوج منها إلى الحصن.

التاريخ: يعزو المؤرخون بناء هذا الحصن إلى رجل اسمه محمد زين عكار، وأنه ظل في حوزة أعقابه إلى سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م ثم فتحه الخلفاء الفاطميون بالتناوب ٤٣٥هـ/١٠٩٣م ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ثم فتحه السلجوقيون وبعد أن فاز الصليبيون بفتح طرابلس أخذوا حصن عكار بمقتضى معاهدة، ثم استرده منهم نور الدين محمود، ثم عاد الصليبيون فاستردوه سنة ٥٦٦هـ/١٠٧٠م وسلمه ملك الفرنس آموري إلى الفرسان الاستباريل ولا يعلم مقدار الزمن الذي ظل هؤلاء فيه لأن هذا الحصن انتقل بعد حين إلى سادات الصليبيين الذين كان لهم شأن كبير في ذلك العهد. ثم تخلى هؤلاء عنه إلى أمير طرابلس سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م وكانت مكانة هذا الحصن في طريق حمص وبعلبك، حتى إذا بلغوا مآربهم لاذوا بهذا الحصن المنيع الواقع في مكان لا يرام، لهذا عزم المسلمون فيما بعد على نزع هذا المعقل الاستراتيجي من يد الإفرنج وتم ذلك على يد الملك الظاهر بيبرس فهو بعد أن افتتح قلعة الحصن ٨ نيسان ٦٧٠هـ/١٢٧١م حمل منجنيقاته وآلات الحصار والنقب وهاجم بها هذا الحصن ومازال يضايقه حتى استسلمت حاميته وقد أصلح المسلمون فيما بعد هذا الحصن وغيروا ببنائه كثيراً.

وفي عهد السلاطين العثمانيين استقر في حصن عكار وبلادها أمراء من بيت سيفا، إلى أن جاء الأمير فخر الدين المعني وانتزعها من أيديهم وضرب الحصن.

كان هذا الحصن يتألف من برج مستطيل يقع في طرفه الجنوبي، ومن أربعة أبراج جانبية مستطيلة أيضاً ثلاثة في الشرق وواحد في الغرب، وكان ثمة جدار سجف من الحجر الأملس يربط الأبراج بعضها ببعض، وفيه مراس، وقد بقي من جدار السجف المذكور قطعة سالمة في الطرف الشمالي الشرقي من الحصن وثمة أيضاً بهو معقود يقع وراء السور، مازال الدخول إليه ممكناً فيه ثلاثة مرام كبيرة باقية.

وأشهر بنو سيفا كان يوسف باشا، الذي ظل والياً على طرابلس وماحولها ٤٥ سنة (توفي سنة ١٠٣٤ هـ) وهو الذي اغتال الأمير محمد آل عساف في عقبة المسيلمة ثم تزوج امرأته واستولى على ولايته وأرزاقه، وكان بينه وبين فخر الدين المعني الثاني حاكم جبل الشوف حروب طويلة.

وكانوا يمتدون إلى بيروت ولهم فيها آثار وأوقاف فلما أثاروا فتنة على الدولة العثمانية أتتهم جنودها من كل صوب فأخذوا قرية عكار وأحرقوها سنة ١٠٤٧هـ وكان الأمراء بنو سيفا قد اجتمعوا هناك فقتلوا عن آخرهم وانقرضت سلالتهم وضربت عكار بعد ذلك حتى أنها الآن ليس فيها أكثر من ثلاثين بيتاً.

بنو سيفا أمراء أكراد من حواشي الملوك الشراكسة في مصر، حكموا طرابلس وعكار وحصن الأكراد وقد اشتد الخصام بينهم وبين الأمير فخر الدين المعني الثاني، فضايق الأمير يوسف سنة ١٠٢٨هـ/١٦١٨م بموقعة عكار وأحرق جميع قصوره ودوره فيها كما كان أحرق ابنه حسين باشا سيفا دور آل معن في دير القمر سنة ١٠٢١هـ/١٦١٢ م فاقسم فخر الدين إذ ذاك أن يبني دير القمر بحجارة عكار. وهكذا فعل فإنه نقل حجارة قصور السيفيين من عكار إلى دير القمر وبقي يوسف باشا في ولاية طرابلس إلى سنة ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م مدة ٤٥ سنة.

الأبراج ومثلها بقية الأسوار قد تهدمت وزال منها كساؤها الخارجي الذي كان مؤلفاً من أحجار منحوتة ماعدا البرج الذي في الطرف الجنوبي، يدخل إلى هذا البرج من مدخل مرتفع فيجد بهوا معقوداً قد خرقت فيه مرامي وصنف الأحجار المستعملة في العمارة ـ ومنها تلك الأحجار المنفردة التي نحتت نحتاً محدوداً (أحجار صورية) تدل في وضوح على أنها من عهد الصليبيين، وإن هذا الحصن أعاد العرب بناءه.

ويزيد هذا الاستدلال صحة حينما يثبت لدى الممعن أن البرج في واجهاته الجنوبية والشرقية قد زين بصور جميلة للأسود التي كانت رمز الملك الظاهر بيبرس، مع صور رنوك (رنك).

ويلحظ بعد مغادرة البهو المذكور دهليز ينحرف بزاوية قائمة ومثله درج معقود يوصل إلى ذروة البرج، وفي هذه الذروة منظر جد رائع يشمل الحصن بكامله ثم قرية عكار ثم الشلالين اللذين يرفد أحدهما إلى الوادي الشرقي والثاني الوادي الغربي، ويشمل أيضاً إذا مد بصره من ثغرة في الجبل وادي نهر الكبير وجبال النصيرية التي يلمح فيها بجلاء برج صافيتا وقلعة الحصن، وتدل هذه المناظر على أن الصليبيين قد انتخبوا مكاناً يساعدهم على البقاء، متصلين بالنظر مع بقية حصونهم في هذه الربوع.

أما جوف الحصن فليس فيه سوى الأنقاض المركومة. إنما يميز ما بين هذه قسم مرتفع وآخر منحط فالأول ربما كان بناء المصيصة أو الملجأ الأخير في الدفاع، والثاني ربما كان الساحة السفلى، وقد انفصل القسمان عن بعضها بخندق. وفي القسم المرتفع يلحظ صهريج معقود ما برح جيد السلامة، أما مدخل القلعة فيظهر أنه كان منفتحاً نحو الواجهة الشرقية، ففي هذه الواجهة انقاض أحجار وأتربة فوق منحدرات الشنخاب الحامل للحصن يظن أنها كانت لأجل أن تحمل الطريق الموصل إلى القلعة.

وإذا دار الزائر حول الحصن من الخارج، يمكنه ان يرى عن كثب عند أقدام البرج الجنوبي. النقب في الصخر الذي صنع بيد البشر وقد عمل في هذا المكان حوضاً لخزن مياه المطر التي كانت تتجمع في سطح البرج وتنزل من خرق منقور في الصخر. وفي الواجهة الغربية الكثيرة الصخور يوجد عدد عظيم من كسور الأواني الخزفية العربية التي تعود للقرنين ١٢م و ١٣م.

هذا ويمكن الوصول إلى قرية عكار (العيقة) من الطاحون الذي يقع عند ملتقى الواديين (النهري) وهي في علو ٧٠٠ متر فوق أكمة تقع في شرقي الحصن وبإزائه. ولهذه القرية دور قديمة من الطرز المحلي لها نوافذ ذات إطارات وعوارض خشبية وهي في مكان أخضر فيها أشجار عظيمة من أجناس مختلفة اكتست

بالدوالي والنباتات المتعرشة وفي هذه القرية بقايا مسجد عليه كتابات، وبقايا تكية دراويش مرممة في سنة ١٠٢٠ هـ/١٦١١م وبناء هذه التكية يعلو ستة أمتار وفوقه برج صغير مربع الشكل يحتوي على درج حلزوني وقسم من واجهتها مبني من أحجار بيض وسود ومزخرف بأسد ذلك الملك الظاهر بيبرس، وقد نقل هذا الأسد من إفريز الأسود الذي في البرج الجنوبي من الحصن ولما ملك الأمير فخر الدين المعني الحصن دك أيضاً المسجد والتكية المذكورين.

وثمة مجاز دواب يوصل بعد ساعة إلى الشلال الجميل في الشيخ جنيد، ومن هذا الشلال يحصل الفرع الغربي لنهر عكار وثمة أيضاً مجاز يتجه نحو الشمال الشرقي نحو القبيات، في أولها تسلق العقبة الكأداء التي في الثنية المطلة على قرية عكار وعلوها ٨٦٠ متراً ثم هبوطه من المنحدر المناوح للعقبة المذكورة، حتى يصل إلى قرية القبيات في طريق السيارات.